في رحاب كتاب الله

للدكتور"محمد رامز" عبد الفتاح العزيزي

رقــم ١

"تفسير من أيٍّ الذكر الحكيم
تفسير معنى الاستعاذة والبسملة"

وتفسير سورة الفاتحة
وسورة الفتح وسورة الحجرات

الإجازة والرقم التسلسلي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:
﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾
سورة محمد، الآية: ٢٤

وقال سبحانه:
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

سورة النحل، الآية: ٤٤

وقال سبحانه:
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾
سورة الإسراء، الآية: ٩

وقال سبحانه:
﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾

سورة آل عمران، الآية: ١٨٧

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال لي رسول ﷺ: "اقرأ علي القرآن" فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك نزل، قال: "إني أحب أن اسمعه من غيري" فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[1] قال: "حسبك الآن" فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان".

رواه البخاري ومسلم.

عن عوف بن مالك ﷺ قال:

"قمت مع النبي ﷺ فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف واستغفر".

رواه أبو داوود والنسائي

[1] . سور ة النساء، أية: ٤١.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب نورا وهدى للعالمين، وأرسل رسوله سيدنا محمد خاتماً للأنبياء والمرسلين، وأنزل عليه خير كتبه وأفضلها وأسم اها وأعلاها، وجعله مهيمنا عليها وناسخا وخاتما لها، فختم به وبكتابه جميع الرسالات السماوية بما حواه من عقائد وتشريعات تصلح لكل زمان ومكان، ففيه مجامع الكلم من الهدى والفرقان، وأوجد فيه خير أمة أخرجت للناس . فكان رحمة للعالمين.

أما بعد:

لقد اتفق العلماء عل ى أن لتلاوة القرآن الكريم كيفية مخصوصة يجب على قارئ القرآن شرعا أن يراعيها أثناء تلاوته، لينال الأجر الذي وعد الله به القارئين، لكتاب الله ﷻ.

أولها: هي تجويد كلماته وتقويم حروفه وتحسين أدائه وإعطاء كل حرف حقه ومستحقه من الإجادة والإتقان والترتيل والإحسان، على الصيغة الملقاة من أئمة القراء ، المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية، التي لا يجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها: وتلك الكيفية، هي التي نزل بها القرآن ، وهي المرادة من الترتيل الذي أمر الله به نبيه محمداً ﷺ في قوله تعالى : " **ورتل القرآن ترتيلا**".[1]

[1]. سورة المزمل آية: ٤

ثانيها: التدبر والتفكر فيما يقرؤن أو يسمعون من القرآن، كما أمرهم الله في كتابه، قال الله تعالى : **"أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"**.[1]

أي أن الذي يقرأ القرآن ، ولا يحاول أن يتفكر به وأن يفهم معناه ليعمل به ، يكون قد أقفل عقله وقلبه فلا يعي ما يقرأ ليعمل به، ويكون مثله كمثل بني إسرائيل الذين قال الله في حقهم : **"مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا "**[2]، أي أن مثل الذين أعطوا التوراة وكلفوا العمل بها ، ثم لم يعملوا بها كمثل الحمار يحمل كتباً لا يعرف ما فيها . وهذا المثل تحذير للأمة الإسلامية من أن يكونوا كاليهود الذين يقرؤن التوراة ولا يتدبرون في معناها ولا يعملون بها.

فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقفون على معنى كل آية يقرؤنها، يتدبرون في معناها ليعملوا بما ورد فيها من أحكام، فلم يكن أحدهم يقرأ القرآن لتذوق أساليب اللغة العربية، أو للثقافة البحتة. أو يحفظ آيات ليستشهد بها في المناسبات واللقاءات، أو ليتلوه في الاحتفالات والمناسبات، أو ليتكسب في حفظه أو تلاوته، بل يتلقى القرآن ليترجمه من فوره بعد فهمه إلى العمل بما جاء فيه، وذلك اقتداء برسول الله ﷺ، حيث كان خلقه عليه الصلاة والسلام القرآن، كما روي ذلك عن عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن خلق رسول الله فقالت للسائل : **"ألست تقرأ القرآن؟ قال : "بلى"**،

---

[1]. سورة محمد، آية ٢٤.
[2]. سورة الجمعة، آية ٥.

قالت: "فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن"[1]، وقد أمرنا أن نقتدي برسول ﷺ.

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : **"إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار"**[2]. وروي ذلك عن الحسن البصري حيث قال : إن من كان قبلكم رأوا أن هذا القرآن رسائل إليهم من ربهم ، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها في النهار.

وروى الإمام الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : **"كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"**.[3] كما روى ابن جرير قال حدثنا ابن حميد قال : **"حدثنا جرير عن عطاء عن أبي عبد الرحمن قال : "حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل معا"**.

ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يبقون مدة في حفظ السورة ، وذلك بسبب تدبرهم لمعناها ليعملوا بها عملا بقوله تعالى : **"كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ "**[4]، وقوله تعالى: **"أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ"**[5].

---

[1]. رواه الإمام مسلم انظر مختصر صحيح مسلم للمنذري، تحقيق الألباني، ج١ ص ١٠٦، باب جامع صلاة الليل ومن قام عنه أو مرض رقم الحديث ٣٩٠، والسائل هو سعد بن هشام بن عامر.

[2]. تفسير ابن جرير، جـ ١، ص٨٠، قال مخرج أحاديثه الشيخ أحمد شاكر: "إسناده صحيح وهو موقوف على ابن مسعود ولكنه مرفوع معنى.

[3]. المصدر السابق، وقال أحمد شاكر: "هذا إسناد صحيح متصل".

[4]. سورة ص، الآية ٢٩.

[5]. سورة النساء، الآية ٨٢.

وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، قال تعالى : **"إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"**[1]، وعقل الكلام متضمن لفهمه.

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه. فالقرآن أولى بذلك لأنه كلام الله، وقد أمرنا بفهمه وتدبر معانيه، ولذلك كان الصحابي يحس وهو يقرأ القرآن إنه يتحمل واجبات وتكاليف، فيقرأ من الآيات ويحفظ ما يستطيع حمله من تكاليف.

هذا هو المنهج الذي سلكه الصحابة من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم، وهو منهج التلقي والتنفيذ، حيث يفتح أمامهم أفاقا من الفهم والمعرفة والتربية ، وكان هذا المنهج يمزج بين أرواحهم وبين القرآن، ويخلط القرآن بذواتهم، فيحولها إلى منهج واقعي، ويتحول الرجل منهم إلى رجل قرآني يمشي على الأرض، يعطي صورة واقعية صادقة عن الإسلام والقرآن، ويصدق عليه قول الله سبحانه: **" أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ "**[2].

هذه الفئة المؤمنة الصادقة مع الله المتقون له، تحققت لها العزة والكرامة وانتصرت على أ عدائهم ورجعت إلى مكة بعد أ ن أخرجت منها مهاجرة كارهة هم ورسول الله ﷺ بعد ثماني سنوات من هجرتها، بل انتصرت على قريش بعد أقل من سنتين من هجرتها، وذلك في غزوة بدر، وبعد فتح مكة دانت لها الجزيرة العربية كلها، ودكوا دولتي فارس الروم في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك بأقل من ثلاثين سنة.

---

[1]. سورة يوسف، آية ٢.
[2]. سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

هذا المنهج الصافي الذي نهجه صحابة رسول الله ﷺ وهو منهج التلقي لما ورد في القرآن الكريم ، ثم التنفيذ ، لم ينتهجه المسلمون في آخر عصورهم، فتغيرت أحوالهم ، وزالت دولتهم وعزتهم وكرامتهم، وأصبحت دراسة القرآن والعلوم الشرعية في البلاد الإسلامية، معظمها للحصول على أهداف دنيوية ، من المناصب والمراكز التي يسندها لهم الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، وهي أهداف براقة، ولكنها أغراض زائفة وهابطة وزائلة، لأنها من حطام الدنيا، وقد قال الله تعالى: **"وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون"**[1].

وقد كثر في هذا العصر علماء التبرير الذين يفتون بغير ما أنزل الله تبعاً لهوى الحكام، وطمعاً في المناصب الدنيوية والمال الزائل.

وقد حول بعضهم المساجد التي هي للعبادة ومنابر رسول الله ، للنفاق والتزلف للحكام والتقرب منهم.

كما أصبح معظم من يقرأ القرآن لمجرد الثقافة البحتة، أو يحفظ آيات يستشهد بها في المناسبات واللقاءات ، أو ليتلوه في الاحتفالات والمناسبات الدينية، وفي أيام العزاء ، أو للتكسب من خلال تلاوتهم له.

وأصبح معظم الذين يلتحقون في كليات الشريعة وكليات العلوم الإسلامية في البلاد الإس لامية هدفهم الحصول على الشهادة ، لا لأجل حمل رسالة الإسلام وتبليغها للناس.

وبعض المسلمين يقرأون القرآن ويختمونه في الشهر مرة أو مرتين، ولا يفقهون معنى معظم ما يقرأ ونه، بل بعضهم لا تتجاوز قراءتهم للقرآن حناجرهم، فالأولى بهم، أن يقرأ الواحد منهم جزءاً

[1] سورة الشورى أية ٣٦.

واحداً من القرآن يتدبر في آياته ، ويفهم ما ورد فيه من أحكام ومعانٍ في كل شهر، خير من أن يختم القرآن عشرين مرة وهو لا يعي معنى ما يقرأ.

فينبغي على قارئ القرآن أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يتلفظ به فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنواهي، فإن قصر فهمه فيما مضى من عمره استغفر لعدم العمل به، وإذا مر بآية عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب، وإذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ.

وسوف أحاول بمشيئة الله أن أشرح بعض سور القرآن فسأبدأ ببيان معنى كل من الاستعاذة والبس ملة، وتفسير سورة الفاتحة ، التي يرددها المسلم في صلاته سبع عشرة مرة في كل يوم على الأقل.

وبعد ذلك سورة الفتح التي اعتبر فيها صلح الحديبية فتحاً مبيناً فما كان فتحٌ في الإسلام قبله أعظم منه ، فقد اختلط الكفار بالمسلمين ، فخالطت حقيقية الإسلام قلوبهم ، فدخل كثير من الكافرين في الإسلام وارتفع جيش المسلمين من ألف وأربعمائة خلال سنتين إلى عشرة آلاف، وذلك في فتح مكة ، وكشف فيها كذب المتخلفين من الأعراب ونفاقهم.

وقد اشتملت هذه السورة على عشرة أمور ، أخبر الله بها قبل وقوعها، ثم تحققت بعد ذلك، وهو نوع من الإعجاز القرآني الذي يزيد المسلم إيمانا بالله واطمئنانا بأن القرآن منزل من قبل علام الغيوب.

ثم سورة الحجرات التي تتضمن كثيرا من الآداب العامة ومكارم الأخلاق، وتهذيب الوجدان ، التي ينبغي أن تسود المجتمع المسلم في كل عصر وزمان.

وذلك نموذجاً لمن يريد أن يتدبر في معانى القرآ ن الكريم، حتى تعود لهذه الأمة عزتها وكرامتها، وينصرها الله على أعدائها ، من الصهاينة والصليبيين الحاقدين على الإسلام وأهله، ومن يسير في ركابهم من المنافقين الذين يدّعون الإسلام، وهو منهم براء.

والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

ومن أعظم المصائب التي ابتليت بها هذه الأمة؛ فقيه فاجر يفتي بغير ما أنزل الله، إرضاء للحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله وإمام ظالم لا يطبق شرع الله، ومجتهد جاهل ، وقد قال رسول الله ﷺ: "صنفان من الناس اذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس العلماء". رواه ابو نعيم في الحلية.

وعن أبي موسى

الدكتور (محمد رامز) عبد الفتاح العزيزي

يوم الجمعة ٥ رمضان ١٤٢٦ هـ

الموافق ١١ تشرين الأول ٢٠٠٥م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَ مِينَ (١) الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ (٢) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣) إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٤) اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ(٥) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (٦)
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ(٧)﴾

بيان معنى الاستعاذة
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

لقد أمر الله ﷻ عباده بالاستعاذة عند كل قراءة للقرآن فقال في سورة النحل : " **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَ ى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ۞** "[1].

وأمر بها في كل موضع يتوجس فيه المسلم شيئا من المخاوف أو الوساوس التي تدفع به - في مجرى العادة- إلى الشر، قال الله تعالى في سورة الأعراف: " **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** "[2].

وأمر الله رسوله أن يستعيذ به، وأن يلجأ إليه وأن يتحصن به من كل شر، قال تعالى: " **وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ**"[3].

وقال : " **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۞ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۞ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ۞**"[4].

وقال: " **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ ۞ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۞ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** "[5].

---

[1]. سورة النحل، الآية: ٩٨-١٠٠.
[2]. سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.
[3]. سورة المؤمنون، الآية ٩٧-٩٨. والمراد بهمزات الشياطين الوساوس التي تدفع الشخص للمعاصي بسرعة، وأصل الهمز النخس بالمهماز الذي تنخس به الدواب لتسرع في السير.
[4]. سورة الفلق.
[5]. سورة الناس.

معنى الاستعاذة: استجير بجناب الله واعتصم به، من شر الشيطان العاتي المتمرد، أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على ما نهيت عنه، فإنه لا يكفه عني إلا أنت ، يا رب العالمين، واحتمي بالخالق السميع العليم من همزه ولمزه ووساوسه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله رب العالمين.

وإنما خصت ابتداء قراءة القرآن بطلب الاستعاذة ، مع أنه أمر بها على وجه العموم في معظم الشئون، لأن القرآن مصدر الهداية، والشيطان مصدر الضلال، فهو يقف للإنسان بالمرصاد في هذا الشأن على وجه خاص، فيثير أمامه ألواناً من الشكوك فيما يقرأ، وفيما يفيد من قراءته، وفيما يقصد بها، فيفوت عليه الانتفاع بهدي الله وآياته، فعلمنا الله أن نتقي ذلك كله بهذه الاستعاذة التي هي في الواقع عنوان صادق، وتعبير حق عن امتلاء قلب المؤمن بالإيمان بالله وثقته به، وباستجابة الله له بأن يصرف عنه وساوس الشيطان أثناء قراءته للقرآن، فيتدبر في معناه ويصرف عنه ضرره في دينه ودنياه ، فتقوى عزيمته في طرد الوساوس و الشكوك، واستقبال الهداية بقلب طاهر، وعقل واع، وإيمان ثابت.

وقد أجمع المسلمون على أن جملة الاستعاذة التي أمر المسلم أن يقولها عند البدء في قراءة القرآن ليست من نصوص القرآن، وإنما هي تنفيذ لأمر الله في القرآن الكريم، ولهذا لم يجر خلاف للعلماء في أنها تقرأ مع الفاتحة في الصلاة أو لا تقرأ[1].

[1]. انظر تفسير القرآن لفضيلة الأستاذ محمود شلتوت، ص١٧-١٨. الطبعة الثالثة، دار القلم، القاهرة.

بيان معنى البسملة
بسم الله الرحمن الرحيم

معاني المفردات:

بسم الله : ابتدئ واقرأ وأقول مستعينا بالله، والله علم على الذات العلية، فهو أول اسم من أسماء الله الحسنى.
الرحمن : صاحب الرحمة، وهي صفة خاصة به ، وهي صيغة مبالغة حيث أن رحمته تفيض بالنعم جميعها جليلها ودقيقها، عامها وخاصها على جميع خلقه ، مسلمهم وكافرهم، وهي اسم ثان من أسماء الله الحسنى.
الرحيم: صفة فعل تدل على وقوع الرحمة بالفعل ، وهي الإحسان والتفضل بالنعم، وهي اسم ثالث للذات العلية.

الشرح:
من المقرر الثابت عند المسلمين جميعا أن الشرع ندب البدء بها في كل قول أو فعل ذي بال.
واختلفوا في كونها جزء في أول كل سورة، أو في أول سورة الفاتحة فقط، أو أنها آية نزلت مستقلة أنزلت للفصل بين السور.
وقد تبع الخلاف في أنها جزء من الفاتحة ، أو أنها ليست جزءاً منها، اختلافهم في وجوب قراءتها أو عدمه في الصلاة ، أو الجهر بها أو الإسرار، إذا قرئت من قبل الإمام في الصلاة الجهرية.
والذي يظهر لي أن تقرأ من قبل الإمام في الصلاة الجهرية قراءة سرية وذلك بسبب كتابتها في المصحف العثماني في أول سورة الفاتحة، وكل سورة من سور القرآن الكريم ما عدا سورة التوبة.

والحكمة في عدم كتابتها ولا قراءتها عند قراءة سورة التوبة هي : أن السورة تبتدئ بإعلان براءة الله ورسوله من المشركين، وإعلان الحرب عليهم ، بسبب شركهم ونقضهم للعهود، ومحاربتهم لله ورسوله، وهذا لا يناسب معنى البسملة.

وقد أجمع المسلمون على أن البسملة جزء من سورة النمل ، حيث جاء فيها في الكتاب الذي أرسله سيدنا سليمان إلى ملكة سبأ : **"إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"**.[1]

ومن السنة، أن يبدأ بها المسلم عند كل قول أو عمل، فيقول باسم الله الرحمن الرحيم، وفي ذلك التماسا لمعونة الله وتوفيقه في القول أو العمل الذي يقوم به، ومخالفة للوثنيين الذين يبدءون أعمالهم باسم آلهتهم أو طواغيتهم، فيقولون باسم اللاّت، أو باسم العزّى، أو باسم هبل، ويقول البعض في هذه الأيام باسم الشعب.

يقول فضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله : **"إنها تعبير يقصد به الفاعل إعلان تجرده من نسبة الفعل إليه، وأنه لولا من يُعنوَنُ الفعل باسمه لما فعل، فهو له، وبأمره، وإقداره وتمكينه.**

فمعنى أفعل كذا باسم فلان، أفعله معنونا باسمه ولولاه لما فعلته، وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات . وأقربه اليوم ما يرى في المحاكم النظامية حيث يبتدئون الأحكام قولا وكتابة باسم السلطان، أو الخديوي فلان".[2]

مما سبق يظهر لنا أن القصد من البدء بها عند قراءة القرآن وعند كل سورة هو التبرك، أو الاستعانة فقط ،كما يقول البعض، وإنما القصد منها أولا وبالذات لفت أرباب العقول باد ئ ذي بدئ إلى أن

---

[1]. سورة النمل، الآية ٣٠.

[2]. تفسير القرآن للإمام محمود شلتوت، ص١٩، الطبعة الثالثة، طبعة دار القلم/ مصر.

هذه السورة وما يتلى فيها من آيات، وما تدل عليه من أحكام وقصص إنما هي من الله، وليس لأحد من خلقه شيء فيها، فليست من قول محمد عليه الصلاة والسلام، وليست من تعليم البشر " **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**"[1]، " **الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ** "[2].

إلاّ أن مجيئها على هذا الأسلوب المألوف ، في إفادة هذا المعنى ، الجامع لوصفين كريمين ، لم يعهد عندهم أحدهما، كما لم يعرف اجتماعهما، وهما "**الرحمن الرحيم**"، لما يشعر بأن هذا القرآن قد جاء على غير ما يألفون من كلام الملوك والزعماء والشعراء . والمسلم لا يعنون قوله وعمله باسم الله، إلاَّ حيث يعلم أن ذلك القول أو العمل يرضي الله ﷻ.

فقولنا باسم الله الرحمن الرحيم هو ترديد لشعار إلهي اختاره الله للمسلمين يقولونه عند بدئ كل قول أو عمل، وأنه إنما يقوله بأمر الله وطلبا لمرضاته، ولا يخالف شرعه فيه.

وتتجلى فائدة البسملة في تقوية الروح على عمل الخير، وفي صرف النفس عن عمل الشر، وهذا أسمى ما يتصور من شعار يتخذ عنوانا لأية أمة من الأمم[3].

ومن المؤسف له، أن بعض البلاد الإسلامية تتخذ هذا شعارا للكتب الرسمية التي تصدر من الوزارات والدوائر الحكومية، وتتضمن بعض هذه الكتب الرسمية ما يخالف شرع الله؛ كأن يكون فيها فتح محل لبيع الخمور ، أو للرقص المختلط ، أو للقمار ، أو التعامل بالربا، أو حكم يخالف شرع الله ، و غير ذلك مما يخالف حكم الله ويتعدى حدوده.

---

[1]. سورة النجم، آية ٤.
[2]. سورة الرحمان، آية١.
[3]. فضيلة الأستاذ محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ص٢١.

وإن كتابة **"بسم الله الرحمن الرحيم "**، في صدر الكتاب الذي يتضمن ما يخالف شرع الله ، هو استهزاء بما يتضمنه معنى البسملة، كما فيه استهزاء بشرع الله وأحكامه.

بيان معنى الفاتحة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٤) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٥) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (٦) غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾.

معاني المفردات:

الحمد لله: هو الثناء الجميل بكل أنواعه، وعلى كل حال، لله وحده ، على جهة التعظيم والتبجيل، مقرونا بالمحبة والإذعان، وهو نقيض الذم وأعم من الشكر، لأن الشكر في مقابل النعمة، بخلاف الحمد يكون بالسراء والضراء . وكلمة "الله" اسم للذات الإلهية المستحق للعبادة دون سواه.

رب العالمين: الرب معناه المولى والخالق والمالك والمربي، وهو مشتق من التربية، وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمرهم. وكلمة العالمين جمع عالم، وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كرهط، والمراد بالعالمين جميع الكائنات من كل سوى الله، وتقرر اختصاصه به، فليس لأحد أن ينازعه إياه، وهو أنواع، كعالم الإنس، وعالم الجن ، وعالم الملائكة، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وكل ذلك من المخلوقات.

فعند ما سأل فرعون موسى عليه السلام: **"قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ "**، أجابه بقوله **: "قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ"**[1] .

---

[1]. سورة االشعراء، الآية ٢٤.

الرحمان: ذو الرحمة الشاملة وهي صيغة مبالغة حيث أن رحمته أي خيره وإحسانه وشفقته ورأفته وغير ذلك من النعم يفيض ويعم جميع خلقه، جليلها ودقيقها، عامها وخاصها ، مسلمها وكافرها في الحياة الدنيا.

وكلمة رحمان صفة خاصة به، وهي اسم من أسماء الله الحسنى، قال الله تعالى: **"وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّ كَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ "**[1].

فهي عامة تشمل جميع الخلق ولكنها خاصة بالمتقين المؤمنين يوم القيامة.

الرحيم: صفة فعل، فهي وصف فعلي، وهي تتعلق بالمنعم عليه، قال الله تعالى: **" إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ"**[2].

مالك يوم الدين: الملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة، والدين هو الجزاء ومنه قولهم : "كما تدين تدان " أي كما تفعل تجزى، ويوم الدين هو يوم الجزاء في الآخرة، ومالك يوم الجزاء هو مالك أيام العمل قبله، فالجزاء نتيجة والعمل سبب، فهو إذن مالك الدنيا والآخرة، والجزاء هو؛ إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء.

إياك نعبد وإياك نستعين : العبادة هي الطاعة التامة مع غاية الخضوع الناشئ من استشعار القلب بعظمة المعبود، والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ولذلك لم تستعمل إلا لله تعالى، فلا عبادة إلا لله ، ولا اتجاه لغير الله، فالله وحده يعبد، والله وحده يستعان ومن هنا يظهر؛ ليس المراد بالعبادة المعنى الخاص الذي يطلق عليه الفقهاء مصطلح العبادات

---

[1]. سورة الأعراف، آية ١٥٦.
[2]. سورة البقرة، آية ١٤٣.

في كتب الفقه؛ وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج، كما يتوهم بعض العوام، بل المراد الانقياد والخضوع لجميع أوامر الله ونواهيه فلا طاعة للنظم التي تخالف شرع الله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ولا طاعة للهوى الذي يؤدي إلى معصية الله. قال الله تعالى: " **أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا**"[1].

وقال عن النصارى الذين اتبعوا رجال الدين عندهم الذين شرعوا لهم ما لم يأذن به الله : " **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ** "[2].

وقال رسول الله: "**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**"[3].

وقد قدم المفعول هنا وهو "**إياك**" على الفاعل في الجملتين ليفيد معنى الاختصاص والقصر، أي لا نعبد سواك ، ولا نستعين بغيرك.

اهدنا: أرشدنا ووجهنا ووفقنا وزدنا هداية، قال الله تعالى : "ويزيد الله الذين اهتدوا هدى"[4].

الصراط المستقيم: الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف في أقوالنا وأفعالنا، وهو الطريق الذي يوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

صراط الذين أنعمت عليهم : بدل من الصراط المستقيم وفي ذلك تأكيد بذكر الصراط مرتين وتكرير العامل، لما في من التثنية والتكرار الإشعار بأن الطريق المستقيم هي طريق

---

[1]. سورة الفرقان، آية ٤٣.

[2]. سورة التوبة، آية ٣١.

[3]. مصنف عبد الرزاق، ج ٢- ٢٨٣، رقم الحديث ٣٧٨٨، ومصنف ابن أبي شيبة، ج ٦، ص٥٤٥، رقم الحديث ٣٣٧١٧.

[4]. سورة مريم، آية ٧٦.

الأنبياء والمقربين الذين عرفوا الحق فاتبعوه، فتولاهم الله في الدنيا والآخرة.

غير المغضوب عليهم: غير طريق الذين غضبت عليهم فلعنتهم، وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، وعصوك ولم يؤمنوا به، كاليهود والمنافقين.

ولا الضالين: وغير الذين ضلوا طريق الحق والهداية فابتعدوا عن طريق الإسلام كالنصارى.

الشرح:

هذه السورة وهي سورة الفاتحة نزلت في مكة المكرمة، فهي مكية بالإجماع، أي نزلت قبل الهجرة، وهي أول سورة نزلت كاملة من القرآن الكريم ، وسميت الفاتحة لأنها أولى السور في ترتيب المصحف.

وتسمى **"أم الكتاب"** و أم القرآن، لاشتمالها على مقاصد القرآن من الثناء على الله، والإقرار له بالربوبية والألوهية، وبأنه هو المعبود بحق، وقصر العبادة والاستعانة به سبحانه، والإيمان بيوم القيامة ، وبأنه مالك الدنيا ومالك الآخرة ، والتوجه إليه بطلب الهداية إلى الطريق التي توصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، والبعد عن طريق الذين لعنهم الله ممن عرفوا الحق ولم يتبعوه ، والذين ضلوا طريق الحق، فهي بذلك جمعت مقاصد القرآن ، وهي كالأم بالنسبة لبقية السور القرآنية التي اشتمل عليها الكتاب، كما تسمى بالسبع المثاني لأنها تشتمل على سبع آيات.

كما تسمى بالحمد؛ لأنها تبدأ بالحمد ، وعلمنا الله فيها ﷻ كيف نحمده ، بقولنا الحمد لله رب العالمين ، أي قولوا الحمد لله رب العالمين.

فهذه السورة تقرر الثناء المطلق الذي لا يحد لله سبحانه، وتق رر اختصاصه به ، فليس لأحد أن ينازعه إياه، وتقرر أن هذا الثناء العام، الشامل للثناء المطلق، لله سبحانه في السراء والضراء ، لأنه هو رب العالمين، أي المالك والمتصرف والمربي والمتولي شئون جميع خلقه لا ينازعه في ذلك أحد. فقد عمت تربيته جميع الكائنات والمخلوقات.

وبالنسبة للإنسان الذي جعله خليفته في أرضه، فقد رباه تربية جسمية ونفسية وعقلية، ثم رباه تربية عقائدية وتربية تشريعية سبيلها الوحي، وبعث الرسل مبشرين ومنذرين، وليس لأحد حق في التشريع والتحليل والتحريم سواه، فهو رب العالمين، والمستحق للعبادة، وهي الطاعة والانقياد لجميع أوامره واجتناب نواهيه.

و"**الرحمان الرحيم** " هما اسمان من أسماء الله الحسنى وهما متغايران تمام التغاير؛ فالرحمان صفة ذاتية تدل على أنه مبدأ الرحمة والإحسان.

والرحيم تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليهم.

ويدل على هذا؛ أن الرحمان لم تذكر في القرآن إلا مجرى عليها الصفات كما هي أسماء الذات، **"قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ"**[1]، **"الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى "**[2]، **"قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا"**[3]، **"يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا"**[4].

---

[1] سورة الإسراء، الآية ١١٠.
[2] سورة طه، الآية ٥.
[3] سورة مريم، الآية ١٨.
[4] سور مريم، الآية ٨٥.

أما الرحيم فقد كثر في القرآن استعمالها وصفا فعليا، وجاءت بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه : **"إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ"**[1]، **" إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**[2]، **"وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ"**[3].
وللإتيان بهذين الاسمين الكريمين بعد ذكر ربوبية الله للعالمين مغزى عظيم، ذلك بأن الله بين بهما أن ربوبيته وملكه للعالم ليس مصدرهما جبروته وقهره ، وهو القهار الجبار، ولكن مصدرها عموم رحمته، وشمول إحسانه لجميع خلقه ، فإنهم بالرحمة يوجدون، وبالرحمة يتصرفون، وبالرحمة يرزقون، وعلى الرحمة يعتمدون، وبالرحمة يوم القيامة يبعثون ويسألون.
فإذا استقر هذا المعنى في نفوس العباد، وأن الله يتحبب إليهم بصفة الرحمة والإحسان، كان أبعث لإقبالهم عليه بصدور مطمئنة، وقلوب مؤمنة.
هذا هو الرأي الصحيح في معناهما وهو أن الرحمان صفة ذاتية تدل على أنه مبدأ الرحمة والإحسان، والرحيم تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليه، وهو ما اختاره فضيلة الأستاذ محمود شلتوت في تفسيره لسورة الفاتحة.
أما ما ذهب إليه فريق من المفسرين؛ أن الرحمان هو المنعم بجلائل النعم ، وأن الرحيم هو المنعم بدقائقها، أ و أن الرحمن هو المنعم على جميع الخلق، وأن الرحيم هو المنعم على المؤمنين خاصة، أو أن الوصفين بمعنى واحد' وأن الثاني تأكيد للأول ، فقد ضعف فضيلة الأستاذ محمود شلتوت هذه الأقوال فقال : **"فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض النعم عليهم لا**

---

[1]. سورة الحج، الآية ٦٥.
[2]. سورة الممتحنة، الآية ١٢.
[3]. سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

دليل عليه، كما أنه ليس مستساغا أن يقال في القرآن : إن كلمة ذكرت بعد أخرى تأكيد للمعنى المستفاد منها"[1].

وقوله تبارك وتعالى : **"مالك يوم الدين "** إقرار لله سبحانه بتفرده بالملك يوم القيامة، وهو يوم الجزاء والحساب، وقد جاء في القرآن عن هذا اليوم **"يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ"**[2].

وقد خول الله سبحانه في الدنيا لبعض خلقه شيئا من مظاهر المِلك أو المُلك، تنفيذا لحكمته ونظامه الذي أراده لهذا الكون، وبين لهم الأحكام التي يسيرون عليها بما سنه لهم على لسان أنبيائه ورسله، وطلب منهم تنفيذها، وحذرهم م ن عدم تطبيقها والتعدي على حدوده التي أمرهم بإقامتها بين الناس ، وأمر الناس بطاعة الحكام والملوك إن هم أقاموها ولم يتجاوزوها، وانفرد هو يوم القيامة ، بالملك والحكم والإدانة والجزاء، لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه، ولا يشفع أحد إلا لمن ارتضى، ولا يتكلم أحد إلا ب إذنه، يومئذ توضع موازين الدنيا وترفع موازين الآخرة **"فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه"**.

والإنسان إذا آمن بأن هناك يوماً يظهر فيه إحسان المحسن وإساءة المسيء، وينال كل منهما جزاءه دون محاباة ولا ظلم، وأن زمام الحكم في ذلك اليوم العظيم بيد العليم الخبير ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يتكون عنده خلق المراقبة وتوقع المحاسبة، فكان ذلك أعظم سبيل لصلاحه وصلاح كل ما يقوله أو يعمله، ولأهمية القرآن بالإيمان باليوم الآخر ، ربط الإيمان به بالإيمان بالله ﷻ في كثير من آياته من ذلك **"مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ**

---

[1]. تفسير القرآن، للأستاذ محمود شلتوت، صفحة ٢٦-٢٧، الطبعة الثالثة/ دار القلم.

[2]. سورة الإنفطار، أية: ١٩.

الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا"[1]، **" ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ "**[2].

قوله تبارك وتعالى : **"إياك نعبد وإياك نستعين** " هذه الآية فيها تقرير لجانب العبودية لله والاستعانة به، وبينت أن الذي ينبغي أن يعبد ويستعان به هو الله، فهو الجدير وحده بالخضوع والخشوع والانقياد والاعتراف بالحاجة إليه، فهو يناجيه في صلاته ، والله يسمع منه، فهو أقرب إليه من حبل الوريد، **" مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا "**[3]. وقال رسول الله ﷺ: **"اعبد الله كأنك تراه فإن لم تره فهو يراك"**[4].

وقد قدم المفعول وهو **"إياك"** على الفاعل في الجملتين ليفيد معنى الاختصاص والقصر، أي لا نعبد سواك ولا نستعين بغيرك، وفي ذلك تبرئة فيما يعبد ويستعان به غير الله ﷻ.

وليس في هذا ما ينافي التعاون بين الناس وقد طلبه الله سبحانه في قوله تعالى: **"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"**[5].

ومعنى العبادة هي الطاعة التامة لله مع غاية الخضوع الناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود، وهي تدل على غايات التذلل القلبي والحب النفسي لله.

لذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقا بأقصى الخضوع له سبحانه.

---

[1]. سورة البقرة، الآية ٦٢.
[2]. سورة البقرة، الآية ٢٣٢.
[3]. سورة المجادلة، الآية ٧.
[4]. مجمع الزوائد للهيثمي، جـ٢، ص٤٠.
[5]. سورة المائدة، الآية ٢.

فليس المراد بالعبادة المعنى الخاص لها - كما سبق بيانه عند بيان معاني المفردات- وهو ما اصطلح عليه الفقهاء من إطلاق لفظ العبادات عليه في كتب الفقه، وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج، كما يتوهم بعض العوام بل المراد الانقياد والطاعة التامة لله، والتنصل من عبودية المخلوق ذوي الجا ه والسلطان ، وعبودية الهوى، وغير ذلك مما يطاع وينقاد إليه في معصية الله واتباع غير شريعة الله، قال الله تعالى في حق النصارى الذين اتبعوا رجال الدين عندهم الذين أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحل الله: **" اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ "**[1]. وقال في حق من يسيرون على هواهم ولا يتقيدون بشرع الله : **"أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا"**[2].

وقال رسول الله ﷺ: **"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"**[3]، وفي رواية الترمذي : **"السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية ، فلا سمع عليه ولا طاعة"**[4].

والمراد بالاستعانة : "طلب المعونة بعد بذل الجهد في العمل، والعاقل لا يطلب المعونة إلا من القادر عليها، والله هو القادر، وقدرته شاملة كاملة لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن سلطانه شيء، فهو الذي يهيئ الأسباب، وهو الذي يزيل الموانع، وهو الذي يعطي إن شاء ويمنع إن شاء : **"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"**[5].

---

[1]. سورة التوبة، آية ٣١.

[2]. سورة الفرقان، آية ٤٣.

[3] مصنف عبد الرزاق، جـ٣٨٣/٢، رقم الحديث ٣٧٨٨، ومصنف ابن أبي شيبه جـ ٦، ص٥٤٥، رقم الحديث ٣٣٧١٧.

[4]. رواه الترمذي باب ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق جـ٤، ص٢٠٩، رقم الحديث ١٧٠٧، تحقيق وتعليق إبراهيم عوض، طبعة مصطفى البابي الحلبي.

[5]. سورة يس: الآية ٨٢.

وفي استعانة المؤمن بالله وعدم اللجوء إلى غيره ، سمو بالمؤمنين عن مواطن الذلة والاحتياج لبشر أمثالهم من ذوي الجاه والسلطان، فالمؤمن لا يتذلل إلا لله وحده، فإن طالب بحق له لا يطلبه إلا بعزة نفس وإباء وشرف وكرامة.

قوله تعالى: **"اهدنا الصراط المستقيم"**: أرشدنا ووفقنا إلى سلوك الطريق التي لا عوج فيه ولا انحراف وزدنا هداية من قبلك ، قال الله تعالى : **"وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ "**[1] فمعنى الآية: فالذين اهتدوا إلى طريق الحق، فآمنوا بالله ورسوله وسلكوا طريق الإسلام، زادهم الله هدى، وأرشدهم إلى طريق المتقين التي توصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالمسلم في هذه الآية يطلب زيادة الهداية إلى الطريق الحق التي توصل إلى التقوى، وإذا حصلت له التقوى يوفقه الله بالتمييز بين الحق والباطل قال الله تعالى: **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"**[2].

فهذه الآية تنادي المؤمنين وتلفت نظرهم إلى أعظم فوائد التقوى لله في أحكامه وسننه، وثمارها وهو أن يجعل لهم الفرقان والنور في أنفسهم، يبصرهم بالحق والعدل والصلاح، ويستطيعون أن يميزوا بين الحق والباطل ، وبه يهتدون إلى الحق في أقو الهم وأفعالهم، ويعرفون الباطل فيجتنبوه. اللهم اهدنا واجعل لنا فرقانا نميز فيه بين الحق والباطل وكفر عنا سيئاتنا واغفر لنا فأنت صاحب الفضل العظيم على جميع مخلوقاتك.

قوله تعالى : **"صراط الذين أنعمت عليهم "**، بدل من الصراط المستقيم، وفي ذلك تأكيد بذكر الصراط مرت ين وتكرير العامل،

---

[1]. سورة محمد، الآية ١٧.
[2]. سورة الأنفال، الآية ٢٩.

وفائدته التكرار والتثنية هنا الإشعار بأن الطريق المستقيم هي طريق الذين أنعم الله عليهم بزيادة الهداية إلى طريق المتقين، وهي الطريق الحق الذي سلكه الأنبياء والمقربين المتقين ، وهي طريق الإسلام.

وكلمة آمين ليست من سورة الفاتحة بإجماع العلماء.

ويسن أن يقولها المسلم بعد قراءة الفاتحة وهي بمعنى استجب لنا يا ربنا.

وبالنسبة لفضل قراءة سورة الفاتحة، قال أبو هريرة : "**إني سمعت رسول ﷺ يقول: "قال الله ﷻ: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد : "الحمد لله رب العالمين " قال الله ﷻ: حمدني عبدي "، وإذا قال : "الرحمن الرحيم" قال الله ﷻ: "أثنى علي عبدي "، وإذا قال : "مالك يوم الدين " قال الله مجدني عبدي، فإذا قال : "إياك نعبد وإياك نستعين" هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: "اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين"، قال : "هذا لعبدي ولعبدي ما سأل** "، رواه الإمام مسلم في صحيحه، ورواه الإمام مالك في الموطأ ، كما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وهذا اللفظ لمسلم.

ما يستفاد من هذه السورة:

١. ينبغي على المسلم الثناء على الله بالسراء والضراء بقوله الحمد لله رب العالمين.
٢. أن الله سبحانه هو الخالق والمالك والمربي وراعي جميع المخلوقات.
٣. أن الله صاحب الرحمة الشاملة يفيض بها وتعم جميع خلقه.

٤. أن الله وحده المالك ليوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة.
٥. العبادة في الإسلام هي الطاعة والانقياد لجميع أوامر الله واجتناب نواه يه، وليست خاصة بالصلاة والزكاة والصوم والحج.
٦. على المسلم أن لا يعبد إلا الله ولا يلجأ ولا يستعين إلا به.
٧. على المسلم أن يطلب من الله الهداية والتوفيق إلى طريق الحق والخير والسعادة.
٨. أن الذي يرشده الله إلى طريق الحق والخير والسعادة في الدنيا والآخرة يكون من ا لذين تفضل الله عليهم بفضله ونعمه.
٩. إن من يعرف الحق وطريق الهداية ولا يسلكها ، هو من الذين لعنهم الله وغضب عليهم كاليهود والمنافقين.
١٠. على كل إنسان ضال لا يعرف الدين الحق كالنصارى وغيرهم أن يسعى لمعرفة حقيقته حتى يهتدي إلى الإسلام وينجو من عقاب الله يوم القيامة.

تفسير سورة الفتح
المراد بالفتح في هذه السورة
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾.

بين يدي السورة مع بيان سبب نزولها:

نزلت هذه السورة في العام السادس من الهجرة، حين رجوع النبي ﷺ من الحديبية، ولقد قال رسول الله ﷺ بعد نزولها لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقد نزلت علي سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ " **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**..."[1] فقد تحدثت في افتتاحيتها عن الفتح المبين، الذي يسره الله سبحانه لرسوله ، وعن آثاره العظيمة في انتشار الإسلام، وإعزاز المسلمين، وكان عود المسلمين قد اشتد، وقوتهم قد زادت، وظهر ذلك في بيعة ا لرضوان التي تمت تحت الشجرة على التضحية والفداء، بعد خروج رسول الله ﷺ إلى مكة لتأدية العمرة.

وسبب خروج الرسول ﷺ إلى أداء العمرة هو أنه عليه الصلاة والسلام، رأى في المنام أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين حالقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، فعلم أن ذلك أمر من

[1] . رواه البخاري.

الله لرسوله، بخروجه هو وأصحابه لأداء العمرة ، فأخبر الصحابة بذلك واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه، حذراً أن تردهم قريش عن عمرتهم، ولكن هؤلاء الأعراب لم يستجيبوا إليه لأنهم ظنوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا، فخرج ﷺ بمن معه م ن المهاجرين والأنصار وهم فرحين، واستعدوا لزيارة المسجد الحرام معتمرين، فخرج بهم رسول الله ﷺ، وكان عددهم ألفاً وأربعمائة، وولى على المدينة ابن أم مكتوم، وأخرج معه زوجه أم سلمة، وساق معه الهدي سبعين بدنه، وأحرم هو ومن معه بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلمو ا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له.

ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف مغمدة في قرابها. لأن الرسول ﷺ لم يرض أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرين، ثم سار الجيش حتى وصل عسفان - على مرحلتين من مكة- فجاءه عينه، يخبره أن قريشا أجمعت رأيها أن يصدوا المسلمين عن مكة، وألا يدخلوها عليهم عنوة أبدا، وتجهزوا للحرب وأعدوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم.

وقد نزلوا بذي طوى يحلفون بالله لا يدخلها عليهم أبداً.

فقال رسول الله ﷺ: **"يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين؟ والله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد مني هذه السالفة"** - أي صفحة العنق، وانفرادها كناية عن الموت - وكان ذلك في السنة السادسة من الهجرة.

ولما وصل رسول الله ﷺ مهبط الحديبية، بركت ناقته، فزجرها ولم تقم، فقالوا خلأت القصواء، فقال عليه السلام: **"ما خلأت وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل "**، يعني أن الله الذي منع الفيل ، ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين ، هو الذي منع هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخوله ا الآن عنوة ، وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، وقال : **"والذي نفس محمد بيده، لا تدعوني قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله إلا أجبتهم إليها، مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم في مثل هذا الوقت لظفروا بهم . ولكن كف الله أيدي المسل مين عن قريش ، وكف أيدي قريش عن المسلمين، كيلا تنتهك حرمات البيت الذي أراد الله أن يكون حرماً آمناً"**[1]، ثم أمرهم بالنزول أقصى الحديبية.

وأرسلت قريش مندوبين عنها، فأعلمهم النبي ﷺ أنه لم يأت حرباً، وإنما جاء معتمراً معظماً للبيت.

وأرسل النبي ﷺ، عثمان بن عفان إلى أهل مكة يخبرهم بمقصد المسلمين، فقال لهم : "أنا لم نأت لقتل أحد، وإنا جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته، ولا نريد إلا العمرة.

فأبت قريش أن يدخل النبي ﷺ وصحبه مكة، وأذنت قريش لعثمان أن يطوف بالبيت، فقال: "لا أطوف ورسول الله ممنوع ، فاحتبست قريش عثمان، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال عليه السلام حينما سمع ذلك: لا نبرح حتى ننا جزهم الحرب[2].

ودعا النبي ﷺ للبيعة على القتال، فبايعوه تحت شجرة هناك سميت (شجرة الرضوان) على الموت، وقد بارك الله هذه البيعة وأعلن رضاه عن أهلها . فقال سبحانه : **"لقد رضي الله عن المؤمنين إذ**

---

[1] . نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ص١٨٧، للشيخ محمد الخضري، المكتبة التجارية الكبرى- مصر.
[2] . المصدر السابق،ص ١٩٨.

يبايعونك تحت الشجرة"، ولقد كانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالله شديدة، يبدو هذا في بيعتهم الجماعية وإعلان الله رضاه عن هذه البيعة ولذلك سميت ببيعة الرضوان . علمت قريش بخبر هذه البيعة فاشتد خوفها، وقويت رغبتها في الصلح، وأرسلت سهيل بن عمرو ليفلوض المسلمين بشأن الصلح، وتوصل الطرفان إلى معاهدة مشتركة سميت بصلح الحديبية، وجاء فيها:

١. وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات.
٢. من جاء محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء من قريش من المسلمين لا يلزمون برده.
٣. من أراد أن يدخل في حلف محمد دخل ف يه، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل فيه.
٤. أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام، ثم يأتي في العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه، ويعتمروا بها ثلاثة أيام ليس معهم من السلاح إلا السيف في القراب والقوس[١].

وقد كان هذا الصلح مثار اعتراض من معظم الصحابة رضوان الله علي‌هم، لأنهم جاءوا لأداء العمرة ، فمنعوا وهم في حالة قوة واستعداد لمحاربة قريش، ولما في هذا الصلح من شروط ظاهرها ضد مصلحة المسلمين . فقد قال عمر ﷺ لرسول ﷺ: **"ألست برسول الله؟ فقال: بلى، قال عمر: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال : بلى، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا إذن؟ فقال رسول الله ﷺ: "أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولن يضيعني". وقد سأل بعضهم رسول الله ﷺ وقالوا : "سبحان الله، كيف نرد إليه من جاءنا مسلماً ولا يردون من جاءهم مرتداً؟ فقال**

[١] . المصدر السابق، ص١٩٠.

عليه الصلاة والسلام أنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا".

ثم وقع الطرفان على الصلح، وبعد ذلك توافدت قبيلة خزاعة ، فدخلت في عهد رسول الله، وتوافدت قبيلة بكر فدخلت في حلف قريش.

وكان أبو بكر الصديق أكثر الناس وثوقا بما اختاره النبي ﷺ، وبأن الحكمة والخيرة فيما اختاره الله ورسوله لهم.

فقد اختلط الكفار بالمسلمين فخالطت حقيقة الإسلام في قلوب أكثرهم، حتى قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: **"ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد"**.

وفي رجوعه عليه السلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح . وقال سبحانه وتعالى في أولها: **"إنا فتحنا لك فتحا مبينا"**.

يقول الزهري: **"فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر ".**

قال ابن هشام : **"والدليل على قول الزهري؛ أن رسول الله ﷺ خرج في ألف وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"**[1].

---

[1]. انظر السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، جـ ٣، ص٣٢١ إلى ٣٣٧، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت، وأنظر نور اليقين للشيخ محمد الخضر عوض ص ١٨٦ إلى ١٩٣، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر/ وأنظر أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن للدكتور عبد الله محمود شحادة ص ٦٢ إلى ٦٧ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.

معاني المفردات:

فتحاً مبيناً: المراد صلح الحديبية حيث كان سببا لظهور الإسلام وانتشاره وفتح مكة.

نصراً عزيزاً : نصرا ذا عز لا ذل معه، وفريدا لا شبيه له ، ويصعب مناله لغيرك.

السكينة: أي الطمأنينة والثبات.

جنود السماوات والأرض : جنو د الله هم كل ما به تنفيذ أوامره سبحانه، من الملائكة أو الإنس، أو الرياح أو الزلازل إلى غير ذلك. والمراد بها هنا جنوده تعالى التي ثبت بها المؤمنين وطمأنهم.

الشرح:

قوله تعالى: "إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ً": يخبر الله سبحانه عن نفسه بنون العظمة ، أنه فتح للنبي ﷺ فتحا بيناً ظاهراً بعقد صلح الحديبية، بينه وبين المشركين بمكة، فقد كانت هذه أول مرة اعترفت فيها قريش بمحمد ﷺ، بأنه قوة يحسب لها حساب، حيث عقدت معه صلحا في إيقاف القتال بينها وبينه، ثم سلمت بحقه وحق المسلمين في العام القابل في دخول مكة لأداء مناسك العمرة ، وفي ذلك إقرار بأن الإسلام دين معترف به.

كما أن هذه الهدنة قد جعلت المسلمين يأمنون شر عداوة مشركي مكة، ألد أعدائهم وأخطرهم، ويوجهون عنايتهم لنشر دعوة الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، حيث بعث رسول ﷺ رسله إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى كسرى ، والمقوقس ملك مصر ، وهرقل، والنجاشي ملك الحبشة، وأمراء الغساسنة، وعمال كسرى في اليمن، يدعوهم إلى الإسلام، وأرسل إلى ملوك العرب

وأمرائهم ، فدخل كثير منهم الإسلام منهم ملك البحرين ، وملك عمان، كما جاء بعض القبائل العربية تعلن إسلامها، وقضى على آخر وكر لليهود في الجزيرة العربية، الذين كانوا يألبون الأعراب على مهاجمة المدينة المنورة؛ ففتح خيبر واستولى على حصونها. وهم الذين هيجوا الأحزاب في غزوة الخندق على محاربة المسلمين ، كما حاولوا أن يهيجوا أو يدفعوا قبيلة غطفان وبعض القبائل على مهاجمة المدينة المنورة عندما كان رسول ﷺ الحديبية، وبذلك صفى حسابه مع اليهود في الجزيرة العربية ، قبل عمرة القضاء، خوفا أن يهاجموا المدينة أثناء أدائهم لهذه العمرة.

وتقع خيبر في شمال المدينة في الطريق إلى بلاد الشام، وتبعد عن المدينة أكثر من مائة وخمسين كيلو متراً وقد انتشر الإسلام بعد هذا الصلح انتشاراً واسعاً بسبب تلك الهدنة، حيث انطلق الصحابة يدعون الناس إلى لإسلام، ويشرحون لهم حقيقة هذا الدين، فدخل من قريش ثلاثة من كبار قادتها، خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة، وعندما اعتدي على رسول رسول الله ، الحارث بن عمير الأزدي الذي أرسله إلى أمير بصرى، من قبل شرحبيل بن عمرو الغساني، عندما بلغ مؤتة ، أرسل جيشا للقصاص ممن قتلوه، حيث حصلت غزوة مؤتة قرب مدينة الكرك. كل ذلك حصل بعد صلح الحديبية، وقبل فتح مكة، أي خلال سنتين فقط من صلح الحديبية، وبهذا يظهر صحة كلام أبي بكر وهو قوله: "ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد، حتى تبلغ الأمور ما أراد . وأن المراد بالفتح المبين هو صلح الحديبية".

وقد روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما نزلت سورة الفتح قال رسول ﷺ: **لقد أنزل علي سورة، هي أحب إلي من الدنيا وما فيها**".

وبالنسبة للشرط الذي كان ينص على من جاء من قريش مسلماً يلزم المسلمين رده، والذي كان وقعه على المسلمين صعباً، فقد ألغي هذا الشرط، بعد أن طلبت قريش إلغاءه بعد أشهر.

فقد تمكن أحد المسلمين الذين كانوا ممنوعين من الهجرة، وهو أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي رضي الله عنه، من الفرار من مكة إلى رسول الله ﷺ، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه، فأمره عليه الصلاة والسلام بالرجوع معهما، فقال : يا رسول الله أتردني إلى الكفار يفتنونني في ديني، بعد أن خلصني الله منهم؟ فقال له رسول الله: "**إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجا**"، فلم يجد بدا من اتباع أمر الرسول ﷺ، فرجع معهما، فاحتال في أثناء الطريق على أحدهما أن تظاهر بأنه معجب بسيفه، فأخذه وقتله به، ففر الآخر مذعوراً، فرجع إلى المدينة وقال : "يا رسول الله : وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم وامتنعت بديني وأن أفتن فيه ، أو يعبث بي...

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: "**ويل أمه، مسعر حرب لو كان معه رجال**"[1].

وأدرك أبا بصير أنه لا مقام له في المدينة، ولا مأمن له في مكة، فانطلق إلى ساحل البحر في ناحية تدعى العيض وشرع يهدد قوافل قريش المارة بطريق الساحل، وسمع مسلمون بمكة عن مقامه، وعن كلام الرسول فيه: "**مسعر حرب لو كان معه رجال**" فتلاحقوا بأبي بصير يشدون أزره، حتى اجتمع إليه قريب من سبعين ثائر ،

[1]. فقه السيرة لمحمد الغزالي، ص ٣٦٥، قال الشيخ الألباني في الحاشية صحيح عن تمام قصة الحديبية عند البخاري.

منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو. وألف أولئك المعذبون الناقمون جيشاً، ضيق الخناق على قريش ، فلا يظفر بأحد منهم إلى قتلوه، ولا تمر عير إلا اقتطعوها واستولوا عليها.

فأرسلت قريش لرسول الله ﷺ يستغيثون، به في إبطال هذا الشرط، ويعطونه الحق في إمساك من جاءه مسلماً، فقبل منهم ذلك، فأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي لم يتمكنوا من تحملها في الحديبية، وعلموا ما أراد الله لهم خير مما هم أرادوه.

قوله تعالى : **"ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك "** هو بدء بيان ما تفضل به الله على رسوله بسبب الطمأنينة التامة بإلهام الله وتوجيهه والاستسلام الراضي لإيحاء الله بقبول ما ورد في هذا الصلح، والذي كان ظاهره ضد مصلحة المسلمين.

فقد أصاب رسول الله ﷺ في هذه الغزوة ما لم يصب في غزوة أخرى، حيث أمر أصحابه بفك الإحرام بعد عقد الصلح فلم يستجب له أحد منهم في أول الأمر.

والمراد بالذنوب الصغائر لا الكبائر، لأن رسول الله ﷺ معصوم عن الكبائر هو وسائر الأنبياء والرسل بإجماع العلماء، وذلك لأنهم خيرة خلقه الذين اختارهم الله لتبليغ رسالاته إلى خلقه، وهم القدوة الفعلية لمن أرسلوا إليهم.

قال الله تعالى: **"لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَ ثِيرًا "**[1]. ولا يعقل أن يرتكب أحدهم بعض الكبائر ، كما ينسب اليهود إلى أنبيائهم زوراً وكذباً .

وقيل المراد ليغفر لك جميع ما فرط منك من ترك خلاف الأولى ، أومن باب حسنات الأبرار وسيئات المقربين.

---

[1]. سورة الأحزاب، الآية ٢١.

"ويتم نعمته عليك ": وذلك بإعلاء هذا الدين وإعلاء منارته، ونشره، وهذه هي نعمة ثانية على رسول الله ﷺ.

"ويهديك صراطاً مستقيماً": أي يرشدك إلى الطريق المستقيم في تبليغ رسالتك وتثبيت أركان هذا الدين ودولته.

وهذه نعمة ثالثة على رسول الله ﷺ.

"وينصرك الله نصراً عزيزاً": أي وينصرك الله على أعدائك نصرا قويا منيعا لا ذلة بعده، وقيل المراد به فتح خيبر حيث حصل مباشرة بعد صلح الحديبية.

وهذه نعمة رابعة أنعم الله بها على رسول الله ﷺ، جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه والاستسلام الراضي لإيحائه ، والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية والثقة العميقة بالرعاية الإلهية.

قوله **"هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين "**: بعد أن ذكر النعم الأربع التي أنعم الله بها على رسوله في هذا الصلح ، ذكر ما أنعم الله به على المؤمنين في الحديبية، وهو أنه هو جل وعلا أعلن رضاه عنهم، وأنزل السكون والطمأنينة في قلوبهم ، وهي الرضى والراحة النفسية مع اليقين والثقة والاستسلام والرضى لما جاء في الصلح، بعد أن كان معظمهم غير راض به.

فلقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الغزوة تجيش بمشاعر شتى ، وتفور بانفعالات متنوعة، كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ، بدخول المسجد الحرام؛ ثم مواجهة موقف قريش، وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت في هذا العام، بعد الإحرام، وبعد إشعار الهدي وتقليده وكان هذا أمراً شاقاً على نفوسهم ما في ذلك ريب[1].

---

[1] . انظر ظلال القرآن بقلم الشهيد سيد قطب، جـ ٢٦، ص٩٩، الطبعة الأولى

وفيما زاد في إثارة حفيظتهم ضد هذا الصلح ، وهو أنه بعد كتابة الصلح جاءهم أبو جندل بن سهيل يحجل في قيوده ، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة، فه رب للسلمين ليحموه، فقال له عليه السلام: **"اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدا فلا نغدر بهم"** ورده إليهم.[1]

ولما انتهى الأمر، أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا الهدي ، ليتحللوا من عمرتهم، فاحتمل المسلمون من ذلك هماً عظيماً ، حتى أنهم لم يبادروا بالامتثال ، فدخل عليه السلام على أم المؤمنين، أم سلمة وقال لها: "هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا، فقالت : يا رسول الله أعذرهم ، فقد حملت نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجع المسلمون من غير فتح، فهم لذلك مكروبون، ولكن أخرج يا رسول الله وأبدأهم بما تريد، فإذا رأوك فعلت اتبعوك، فتقدم عليه السلام إلى هديه فنحره، ودعا بالحلاق فحلق رأسه . فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدي فنحروه وحلقوا . ثم رجع المسلمون إلى المدينة، وقد أمن كل فريق الآخر [2]. فأنزل الله على قلوبهم السكينة والطمأنينة فرضوا بهذا الصلح واستجابوا لأمر رسول الله ﷺ فاستحلوا من إحرامهم ونحروا هديهم وقصر بعضهم شعره وحلق الباقي.

قوله: **"ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم"**: أي إنزال السكينة والطمأنينة على قلوبهم في الحديبية كان ليزدادوا يقيناً مع يقينهم، وتصديقاً مع تصديقهم، برسوخ العقيدة في قلوبهم وتطمئن نفوسهم وثقتهم بالله سبحانه، بعد أن كانوا قد عارضوا الصلح.

---

[1]. نور اليقين للخضري، ص١٩١.
[2]. المصدر السابق، ص١٩١.

"**ولله جنود السموات والأرض** ": جنود الله هم كل ما به تنفيذ أوامره سبحانه من الملائكة والإنس وغير ذلك، والمراد هنا جنوده تعالى التي ثبتت بها قلوب المؤمنين وطمأنتهم، وج علتهم يرضون بالصلح الذي عقده رسول الله ﷺ.

"**وكان الله عليماً حكيماً**ً": أي أن الله عليم بأحوال خلقه حكيم في تقديره وتدبيره، حيث كان هذا الصلح الذي أوحى به لرسوله بالموافقة عليه سببا في تثبيت دعائم الإسلام ونشره، وسببا في فتح مكة حيث فتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، أي بعد سنتين من صلح الحديبية بدون قتال، حيث استسلمت قريش لرسول الله ﷺ وهذا كله من تدبير الله وحكمته.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. كانت موافقة رسول الله ﷺ على صلح الحديبية وما جاء فيه من شروط بوحي من الله ورسوله، وليس باجتهاد منه فلذلك لم يستشر الصحابة فيه.
٢. ما كان في الإسلام فتح أعظم من صلح الحديبية حيث تمكن المسلمون بعده من نشر الإسلام في جميع أرجاء الجزيرة وهم آمنون ، وإرسال الرسل إلى جميع الدول التي كانت تحيط بها، يدعونهم فيها إلى الإسلام.
٣. لقد كافأ الله سبحانه رسوله محمداً بأربعة نعم أنعم الله بها عليه بسبب طمأنينته وثقته بالله وطاعته، بخروجه إلى مكة معتمراً ، ثم قبوله هذا الصلح، وهي : غفرانه للذنوب الصغائر التي صدرت أو تصدر منه، وإعلاءه للدين الذي بعثه الله به، ورفع مناره بين الأمم، وإرشاده إلى الطريق المستقيم في تبليغ هذا الدين ونشره، بعد عقد صلح الحديبية.

وكان ذلك سببا بأن دخل في الإسلام أضعاف ما كان قد دخل فيه قبل ذلك، والأمر الرابع، فتح خيبر ثم فتح عليه مكة بعد سنتين من هذا الصلح بدون قتال وكل ذلك كان بعلم الله وحكمته.

٤. لقد أنعم الله على المؤمنين في هذه أيضاً الغزوة بأربع نعم وهي:

أولاً: إعلان رضاه عنهم حينما بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وإدخالهم الجنة ويوم القيامة بعد تكفير سيئاتهم.

ثانياً: إنزال الطمأنينة والسكينة على قلوبهم، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم.

ثالثاً: كافأهم بفتح خيبر بعد صلح الحديبية،حيث نصرهم عليهم وقضوا على آخر وكرٍ لليهود في بلاد الحجاز.

رابعاً: حصولهم على ما في خيبر من غنائم وأموال مع حصولهم فيما بعد على غنائم كثيرة، من بلاد فارس والروم وغيرها من البلاد التي فتحوها.

أهل الحديبية ومصير المتخلفين

قال الله تعالى:
﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْ رِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَ لَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾.

معاني المفردات:
المنافقين والمنافقات: هم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فالنفاق إسرار الكفر وإظهار الإيمان.
المشركين والمشركات: هم الذين يعبدون مع الله غيره.
ظن السوء: ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول ﷺ والمؤمنين ولا يرجعهم سالمين إلى المدينة في خروجهم لأداء العمرة.
دائرة السوء: أي أنه يقع بهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك . وهو دعاء عليهم من الله بوقوعه عليهم.
وغضب الله عليهم: أي سخط الله عليهم.
ولعنهم: اللعن هو الطرد من رحمة الله.

الشرح:
أي أن الله سبحانه سوف يدخل المؤمنين والمؤمنات بالله ورسوله، جنات تجري من تحتها الأنهار دائمين فيها، ويمحوا عنهم ذنوبهم التي ارتكبوها في الدنيا، فلا يعاقبهم عليها يوم القيامة جزاء صدقهم مع الله.
وليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله أسوأ الظنون، حيث ظنوا بأن الله لن ينصر رسوله ومن معه من المؤمنين، وأن مشركي مكة سوف يستأصلونهم جميعا، كما قال تعالى عنهم: **"بل ظننتم أن لم ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا"**.
وقد قدم الله ذكر المنافقين في الآية على المشركين ، لأنهم أعظم خطراً وأشد ضرراً من الكفار المجاهرين بكفرهم، لأنهم يعيشون في داخل المجتمع الإسلامي ويحاولون تدميره من الد اخل، سواء كان ذلك مع اتفاق مباشر أو غير مباشر مع الكافرين، وقد يكون المنافقون هؤلاء قادة في المجتمع الإسلامي وتخفى حقيقة أمرهم على كثير من الناس ، وقد وصفهم الله تعالى في كثير من آياته ليحذر المسلمين منهم، وذلك كما ورد في أول سورة البقرة : **"وَمِنْ النَّاسِ مَ نْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، قَالُوا: أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ۞**

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ"[1].

بل هناك سور معظمها تتحدث عن صفاتهم وتفضحهم مثل سورة التوبة، وسورة المنافقون. وما أكثرهم في هذا العصر، وهم يخفون حقيقة أمرهم، حيث يصلون مع المسلمين، ويمدحون رسول ﷺ في خطاباتهم في المناسبات الدينية ، وقد يبنون المساجد ، كما كانوا يفعلون في زمن رسول الله، فقد بنوا مسجدا في قباء وسماه الرسول والمسلمون مسجد ضرار، ونهى الله رسوله أن يصلي فيه.

ومن صفاتهم؛ التشكيك بالإسلام وتشريعاته، ودعوى أنه لا يصلح تطبيقه في هذا العصر، ويرتكبون ما حرم الله، كأكل الربا صراحة أو بواسطة الحيل الربوية، ويثيرون العصبيات القبلية والإقليمية والقومية التي حاربها الإسلام، هذه بعض صفاتهم.

وقد أخبر الله سبحانه أن ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين به ذا الهلاك، هو يحيط بهم، كما تحيط الدائرة بما في داخلها، وإن الله قد سخط عليهم بسبب كفرهم ونفاقهم وأبعدهم عن رحمته، وهيأ لهم في الآخرة ناراً حامية ، وهي نار جهنم، وساءت مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق.

قوله تعالى : **"ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً"**: وهذا تأكيد من الله للانتقام من أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين، ذكرت هذه الجملة أولاً في بيان تقدير أنه المدبر لشئون خلقه فناسب أن يذكر بعدها (عليماً حكيماً) ولما كان المقام هنا لتهديد الكافرين والمنافقين ناسب أن يذكر **"عزيزاً حكيماً"**.

قال الرازي في تفسيره الكبير : كرر لفظ **(ولله جنود السموات والأرض)** لأن إنزالها قد يكون للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكره

---

[1]. سورة البقرة، الآيات ٨ إلى ١٦.

أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين، وثانياً لبيان العذاب على الكافرين والمنافقين.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. لقد وعد الله المؤمنين والمؤمنات بأعظم فوز ينالون ه وهو دخولهم الجنة وخلودهم فيها مع العفو عن سيئاتهم.
٢. توعد الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، بأن ما كانوا يتوقعون حلوله بالمسلمين سيعود عليهم ويقع بهم ، وأن غضب الله عليهم ولعنته حالة بهم.
٣. إن جنود الله التي لا يعلمها إلا هو قد تنزل للرحمة ، وقد يكون نزولها للعذاب.

بيـــعـــة الـرضـوان

قال الله تعالى:
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)﴾

معاني الكلمات:
شاهداً: على من بعثت إليهم وذلك يوم القيامة.
مبشراً: أي مبشراً من صدقك من المؤمنين بالفوز بالجنة.
نذيراً: أي منذراً ومحذراً من كذبك بالعذاب.
تعزروه: تنصروه ﷻ وذلك بنصر دينه.
توقروه: تعظموه ﷻ بلسانكم وقلوبكم.
بكرةً وأصيلاً: البكرة أول النهار، والأصيل آخره أي تسبحوا ربكم في كل وقت.
يد الله فوق أيديهم: كناية عن تأكيد العهد والبيعة على عادة العرب عند المبايعة من وضع يد أحدهم في يد الآخر، والمراد بها هنا بيعة الرضوان التي وقعت تحت الشجرة.
نكث: نقض البيعة والعهد.
ينكث على نفسه: أي فإنما يعود ضرر نقضه للعهد عليه.

الشرح:
يبين الله ﷻ في هذه الآيات ، وظيفة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة ، حيث شرفه الله بالرسالة، فبعثه ليكون شاهدا على من كان في عصره من الناس يوم القيامة بأنه بلغهم رسالة ربهم ، التي يدعوهم فيها لعبادة الله وطاعته في الدنيا حتى لا يكون للناس على الله حجة، بأن يزعموا بأن الله لم يبلغهم رسالته، ويبشر المؤمنين الذين ينقادون لأوامر الله ، بالثواب الجزيل يوم القيامة ، حيث يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم وما تلذ به أعينهم.
كما أن من وظيفته إنذار كل من يخالف أوامر الله ، ولا يجتنب ما نهى الله عنه، سوف يعاقبه يوم القيامة، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.
والعلماء المتقون هم ورثة الأنبياء، في تبليغ الناس هذا الدين ، وما ورد فيه من أركان العقيدة ، وما أمر به من الأعمال الصالحة ، والأخلاق الحميدة، وتحذرهم من مخالفته.
ثم يلتفت بالخطاب للمؤمنين ، يكشف لهم عن الغاية المرجوة من الرسالة، وهي ليؤمنوا بالله ورسوله بالتصديق بما جاء به رسول الله ﷺ، ويعزروه بالقيام بما يجب عليهم القيام به بالجهاد في سبيله وبالقيام بإقامة حدوده وتطبيق شريعته.
"ويوقرونه ": أي يعظمون الله في نفوسهم ، بالشعور بجلاله وعظمته، وينزهونه بالتسبيح والتمجيد في الصباح والمساء ، والمراد دائما، لأن طرفي النهار يضمان ما بينهما، و الغرض هو اتصال القلب بالله في كل آن، حيث يراقبون الله في كل أقوالهم وأفعالهم. فقوله تعالى: **"إن الذين يبايعونك إنما يباعون الله، يد الله فوق أيديهم"**: أي أن الذين بايعونك في الحديبية على القتال في

سبيل الله ، ويبايعونك على عدم تولي الأدبار والفرار عند لقاء العدو، إنما يبايعون الله، أي أن الله صاحب هذا البيعة ، والله آخذها لأنها لنصر دينه وشريعته، فالرسول هو نائب عن الله في أخذ هذه البيعة، لأنها لأجل إعلاء كلمته وتطبيق شريعته، وقد روى الإمام مسلم عن مقعل بن يسار قال :" لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربعة عشرة مائة، قال : لم نبايع على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر "، وقد توعد الله الذين يولون الأدبار حين يرون الأعداء زاحفين على المسلمين بقوله: "ي**أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ ۞ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَ دْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**"[1].

أما الذين يمنعون الناس من الجهاد في سبيل الله فعذابهم أشد وأنكى لأنهم منافقون، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

كما توعد الذين يجاهدون في سبيل الله بقوله : "**إِلا تَنفِرُوا يُعَذِّ بْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"[2].

قوله: "**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه**": أي فمن نقض عهده بعد ميثاقه، فلا يعود ضرر ذلك إلا على نفسه، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب، بنقضه للعهد والميثاق الذي عاهد به ربه.

قوله: "**ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما**ً": أي من أوفى بعهده الذي عاهد عليه الله بالوفاء بهذه البيعة ، وهي بيعة الرضوان فسيعطيه الله ثوابا كبيرا في منتهى العظمة.

---

[1] . سورة الأنفال، أية: ١٥-١٦.
[2] . سورة التوبة، أية ٣٩.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. أن وظيفة رسو ل الله ﷺ هي تبليغ الناس رسالة ربهم ، وسوف يشهد عليهم يوم القيامة بأنه بلغهم هذه الرسالة.
٢. كذلك من وظيفته ، تبشير الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ويقيمون حدوده وشريعته، بأن لهم أجراً عظيماً.
٣. أن من يخالف أوامر الله ، ولم يمتثل لما أمر الله بالعذاب الشديد يوم القيامة.
٤. على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله أن ينصر دين الله بالجهاد في سبيله، ويعظمه سبحانه بلسانه وقلبه في جميع الأوقات.
٥. أن بيعة الحديبية كانت بيعة لله ، لأنها بأمر الله سبحانه ، وتسمى ببيعة الرضوان لأن الله أعلن رضاه عنها وعن أصحابها.
٦. أن الذي ينقض عهده مع الله ، ولا ينصر دين الله ، بالجهاد لإعلاء كلمة الله، ومحاربة أعداءه من الصهاينة والصليبيين الحاقدين توعده الله بالعذاب الأليم يوم القيامة.
٧. أن الذين يقاتلون أعداء الله، من الصهاينة والصليبيين الذين استولوا على بعض البلاد الإسلامية كفلسطين وأفغانستان والعراق والشيشان وعدهم الله بالأجر العظيم يوم القيامة.

اعتذار المتخلفين عن طاعة الله ورسوله

قال الله تعالى:
﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنْ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) **بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا** (١٢) **وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا**(١٣) **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** (١٤)**﴾**

معاني المفردات:
المخلفون: جمع مخلف والمراد الذين تخلفوا عن السير مع رسول الله إلى مكة لتأدية العمرة.
الأعراب: سكان البادية من العرب.
لن ينقلب: لن يعود إلى المدينة.
ظن السوء: الشيء المسيء المكروه.
قوماً بوراً: أي فاسدين لا خير منهم.
سعيراً: نارا موقده وهي جهنم.

الشرح:
سبق أن بينت، عند شرح الآيات السابقة، أن رسول الله ﷺ أراد أن يؤدي هو والصحابة رضوان الله عليهم ، أداء مناسك العمرة في مكة المكرمة، لإفهام المشركين أن المسجد الحرام الذي بناه

سيدنا إبراهيم عليه السلام، هو مكان مقدس عند المسلمين، فهو ميراث سيدنا إبراهيم عليه السلام، بل هو أول بيت وضع لعبادة الله ، بناه سيدنا آدم عليه السلام، ثم جاء إبراهيم وابنه إسماعيل فجدد هو وابنه إسماعيل بناءه، بعد أن بين الله له المكان الذي بني فيه في زمن آدم عليه السلام، قال الله تعالى: **"وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۞ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ"**[1].

وكان قد أمر الله سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يسكن زوجته وابنه الرضيع إسماعيل مكة، ليجدد بناء المسجد الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس لعبادة الله، والذي بناه آدم عليه السلام حين نزل إلى الأرض، وقد أمره الله أن يجدد بناء الكعبة وأن يبنيها على القواعد التي سبق أن بنى عليها آدم، وذلك بعد أن كبر ابنه إسماعيل عليه السلام الذي نشأ في مكة، قال تعالى: **"وإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّ ةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞"**[2].

والقواعد هي الأسس، ورفعها هو البناء عليها.

فيكون سيدنا إبراهيم، رفع الأسس التي بنى آدم عليه السلام عليها الكعبة، وذلك بعد أن بين الله له القواعد الأساسية وعرفه بها، وجدد بناء الكعبة، لتعود مكان عبادة للناس كما كانت على زمن آدم عليه السلام.

---

[1]. سورة الحج، الآية : ٢٦-٢٧، فالبيت الحرام هو أول بيت وضع لعبادة الله لما ورد في قوله تعالى : **"إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين"** آل عمران، الآية ٩٦. وقد روى البخاري ومسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع على الأرض فقال المسجد الحرام قلت : ثم أي؟ قال : المسجد الأقصى، فقلت وكم بينهما؟ قال أربعون عاما، فالمسجد الحرام أول من بناه آدم عليه السلام كما ذكر الإمام القرطبي وغيره

[2]. سورة البقرة، الآيات: ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩..

فإحرام النبي ﷺ، هو والصحابة لأداء العمرة ، بأمر من الله ، هو بيان لقريش أن المسلمين يقدسون البيت الحرام الذي بناه أبوهم إبراهيم عليه السلام، كذلك هو بيان للرغبة العميقة عند رسول ﷺ في السلم ، ونسيان الخصومات السابقة ، وأنه يجمعهم تقديس البيت الحرام وأداء مناسك الحج والعمرة إليه ، ولإثبات أنه قد خرج هو وصحابته للعبادة، وذلك لأداء مناسك العمرة دعا الأعراب الذين حول المدينة واستنفرهم للخروج معه، وآذنهم أنه يريد العمرة ، ولا يريد قتالاً.

وساق أمامه الهدي الذي سيذبح ليطعمه فقراء مكة والأعراب الذين حشدوا لاستئصاله في غزوة الأحزاب . وقد استنفر عند خروجه الأعراب الذين حول المدينة ، ليخرجوا معه لأداء العمرة ليثبت لقريش أنه لا يريد حرباً، وليكونوا معه حذر أن تردهم قريش عن عمرتهم.

وممن كان طلب منهم الخروج معه قبائل غفار ومزينة، وجهينة، وأسلم وأشجع فتخلف من هؤلاء أكثرهم حذراً من قريش ، خوفاً على أنفسهم مع أن معظمهم كان يدعي الإسلام ولكنهم منافقون، وظنوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، حيث أن أهل مكة سوف يمنعونهم ويقاتلون النبي ومن معه أشد القتال لذا أبوا إلا أداء العمرة، وأنهم سوف يبيدونهم.

وظنوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، فه ي في نظرهم عمرة محفوفة بالأخطار في نظرهم، فعدم الخروج في نظرهم منجاة من الهلاك والفناء . وأنه إذا نجا الرسول ﷺ من الهلاك ونجح في مقصده هذا، فالاعتذار إليه بعد عودته سهل ، بأن يزعموا بعد رجوعك بأن يقولوا: شغلتنا عن الخروج معك أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، يقولون بألسنتهم غير ما في قلوبهم ، أي فهم

كاذبون في اعتذارهم لأنه ليس هذا بعذر، فمعظم الناس لهم أهل وأموال، ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن طاعة الله ورسوله، والاستجابة لما تفرضه عليهم عقيدتهم ودينهم من أداء مناسك الحج والعمرة والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، ما قام للإسلام قائمة.

والمسلمون ما زالت عزتهم وكرامتهم ودولتهم وأذلوا إلا عندما تخلوا عن تطبيق شريعة الله وإقامة حدوده ، وتركوا الجهاد في سبيل الله، وصدق رسول الله حيث قال : **"ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا"**.

وقد أمر الله رسوله أنه عندما يأتي الأعراب يعتذرون إليه عن عدم الخروج أن يرد عليهم بقوله : **"فمن يملك لكم من الله شيئا "**، أي فمن يدفع عنكم قضاءه، إن أراد بكم ما يضركم كالهزيمة ، أو أمراً ينفعكم كالنصر والغنيمة؟.

وفي هذا الرد الذي أمر الله به رسوله بالرد عليهم رد حاسم، حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع، أي ليس الأمر كما زعمتم بل الله مطلع على ما في قلوبكم من الكذب والنفاق ، وقد أعلم الله رسوله ما كانوا يخفونه في نفوسهم.

وقوله تبارك وتعالى : **"سيقول المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما لي س في قلوبهم "**: هو إخبار من الله بشيء قبل وقوعه، وهو نوع من الإعجاز القرآني بالإخبار بالشيء قبل وقوعه، حيث أخبر بأن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله سوف يأتون يعتذرون إليه بعدم خروجهم بأنهم شغلتهم أموالهم وأهليهم ويطلبون من الرسول ﷺ ، أن يستغفر لهم بسبب عدم خروجهم، وبأنهم يقولون

هذا الكلام بألسنتهم فقط، وليس صادراً من قلوبهم، فلم يكن لهم عذر في عدم الخروج، ولم يطلبوا المغفرة عن صدق وإيمان، وإنما هو نفاق وكذب. وقد حصل ما وعد به الله ما أخبر به رسوله من إتيان هؤلاء الأعراب للاعتذار كذباً، وهو وعد لا خلف فيه و قد حصل.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. خبر الله رسوله عن موقف المتخلفين من الأعراب قبل رجوعه، وهو خلق المعاذير كذباً ، والطلب منه الاستغفار لهم، وهذا نوع من الإعجاز القرآني ، بالإخبار بالشيء قبل وقوعه.
٢. إخبار القرآن أن السبب الحقيقي من عدم خروجهم ظنهم أن الرسول ومن خرج معه سوف لن يعودوا ، حيث أنهم سيهلكون على أيدي قريش، وحسن ذلك في نفوسهم ، وهذا أيضا نوع من الإعجاز القرآني.
٣. أن الله ﷻ إذا أراد بقوم خيرا أو أراد بهم شرا لا مرد لقضائه حيث لا يملك أحد رده.

منع المتخلفين من الخروج لفتح خيبر مع الإخبار بأنهم سيدعون لقتال مسيلمة الكذاب وقومه

قال الله تعالى:
﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَ ارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا(١٧)﴾

معاني الكلمات:
إلى مغانم: المراد مغانم خيبر.
ذرونا: اتركونا نخرج معكم ولا تمنعونا.
من قبل: أي قبل وصولنا إلى المدينة من الحديبية.
بل تحدسوننا: أي أن الله لم يمنعنا بل أنتم تحسدوننا على ما يحصل لنا معكم من الغنائم.
لا يفقهون: لا يفتهمون ولا يعلمون من أحكام الله وحكمته.
إلا قليلاً: إلا الشيء القليل.
أولو بأسٍ شديدٍ: أصحاب شدة في القتال.
حرج: إثم ومؤاخذة.

الشرح:
لما انصرف المؤمنون راجعون من غزوة الحديبية على الصلح من غير قتال، ولم يؤدوا العمرة استجابة لأوامر الله ورسوله، وعدهم الله جزاء ذلك بفتح خيبر والاستيلاء على غنائمها ، وأنها ستكون خاصة بهم، وأخبر الله رسوله، أنه عند خروجه وانطلاقه هو من كان معه في الحديبية ، سيأتي الأعراب الذين تخلفوا عنه يوم الحديبية ويطلبون الخروج معه، قائلين ذرونا نتبعكم و نسير معكم في هذه الغزوة، يقولون هذا لأنهم يظنون أن المسلمين سوف ينتصرون على أهل خيبر ، ويستولون على ما فيها من الأموال الكثيرة.
يريدون بذلك تغيير وعد الله بتخصيص غنائم خيبر لأهل الحديبية . فقل لهم أيها النبي: لن تخرجوا معنا، وهذا الأمر ليس صادر منا بل هو صدر سابقاً من قبل الله سبحانه، وذلك بتخصيص غنائم خيبر لمن شهد الحديبية وليس لغيرهم منها نصيب، وذلك عند رجوعهم من الحديبية بغير فتح ولا عمرة ، وبعد أن حصل منهم بيعة الرضوان على عدم الفرار من القتال والموت في سبيل الله.
ولما كان هؤلاء الأعراب منافقين، لا يؤمنون بصحة ما أخبرهم به رسول الله ﷺ، ويظنون أنها حيلة لحرمانهم من غنائم خيبر والمنافع الدنيوية التي يطمعون بالحصول عليها.
أخبر الله رسوله بما سوف يصدر منهم عند حرمانهم من الخروج معه، حيث سوف يقولون: **"بل تحسدوننا"**.
وهذا إخبارخامس عن مواقف الأعراب المتخلفين قبل وقوعه حيث أن **الإخبار الأول** هو: دعواهم بأن عدم خروجهم معهم هو انشغالهم بأموالهم، وهم كاذبون، وقد حصل.

والإخبار الثاني : طلب الاستغفار من الرسول ﷺ كذباً أيضاً عند رجوعه من الحديبية بسبب تخلفهم، وقد حصل هو الآخر.
والإخبار الثالث: أن السبب الحقيقي من عدم خر وجهم مع رسول الله ﷺ هو اعتقادهم بأن الرسول ﷺ وصحابته لن يعودوا سالمين إلى المدينة.
وهذا هو **الإخبار الرابع** هو طلبهم الخروج معه عند خروجه لقتال اليهود في خيبر لأجل الحصول على ما فيها من الغنائم.
الإخبار الخامس الذي حصل وهو دعواهم بأن منعهم من الخروج مع رسول الله إلى خيبر إنما هو حسد من المسلمين يحتالون به عليهم، ليفوتوا عليهم غنائمها، وقد حصل هو الآخر أيضاً، وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم عندما يدعون ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ، أي أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره، وذلك؛ أن جزاء المتخلفين الطامع ين بالغنيمة أن يحرموا منها، وجزاء الطائعين المتجردين عن منافع الدنيا أن يعطوا من فضل الله، وان يختصوا بالمغنم بتقدير الله جزاء اختصاصهم بالطاعة لله ولرسوله، والإقدام يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في الجهاد في سبيل الله.
ولقد كان خروج رسول الله ﷺ بعد مدة وجيزة من صلح الحديبية إذ كانت في محرم من سنة سبع من الهجرة أي بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية وأنها كانت وافرة الغنائم.
وكانت حصون خيبر آخر ما تبقى لليهود في الجزيرة العربية من مراكز قوية غنية ، وكان قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة الذين كانوا في المدينة المنورة وأجلاهم عنها رسول الله وقد أمر الله رسوله بأن يخبر هؤلاء الأعراب المخلفين بقوله : **"قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولي بأسٍ شديدٍ تقاتلونهم أو يسلمون، فإن تطيعوا الله يؤتكم أجراً حسناً، وإن**

تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما ً" أي قل يا محمد لهؤلاء المخلفين من الأعراب الذين تخلفوا عن الحديبية ـ كرر وصفهم بهذا الاسم إظهاراً شناعته ومبالغة في ذمهم ـ ستدعون إلى حرب قوم أشداء في الحرب.

والمراد بهم بنو حنيفة قوم مسيلمة (الكذاب)، وذلك بعد وفاة الرسول ﷺ، حيث ارتدوا عن الإسلام، وحكم هؤلاء إما أن تقاتلوهم أو يعودوا إلى الإسلام.

وإنما قلت بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب لأن المسلمين لم يلقوا أشد مما لقوا في موقعة اليمامة ومقاتلة بني حنيفة ، ولأن الذين يقاتلون حتى يسلموا هم المرتدون بخلاف غيرهم فإنه يقبل منهم الإسلام أو الجزية أو القتال.

ومما يدل على أن المراد بهذه الآية بني حنيفة جماعة مسيلمة الكذاب ما يلي:

أولاً: ما ذكره رافع بن خديج ﷺ عن معركة اليمامة، قال : "خرجنا من المدينة ونحن أربعة آلاف، وأصحابنا من الأنصار ما بين خمسمائة إلى أربعمائة، وعلى الأنصار ثابت بن قيس ، ويحمل رايتنا أبو لبابة، فانتهينا إلى "اليمامة" فننتهي إلى قوم هم الذي قال الله فيهم : "**ستدعون إلى قوم أولي بأسٍ شديدٍ تقاتلونهم أو يسلمون** "، فلما صففنا صفوفنا ووضعنا الرايات موضعها، لم يلبثوا أن حملوا علينا فهزمونا مراراً، فنعود إلى مصافنا وفيها خلل، وذلك أن صفوفنا كانت مختلطة، في ها حشو كثير من الأعراب ، في خلال صفوفنا، فينهزم أولئك بالناس ... ثم إن الله تعالى بمنه وكرمه وفضله رزقنا عليهم الظفر، وذلك أن ثابت بن قيس، نادى خالد بن الوليد: أخلصنا، فقال خالد: "ذلك إليك، فناد في أصحابك" ، فأخذ ثابت الراية ونادى ياللأنصار، فتسللت إليه رجلاً

رجلاً، فنادى خالد: ياللمهاجرين فأحدقوا به، ونادى عدي بن حاتم، ومكنف بن زيد الخيل بطيء، فثابت إليهما طيء، وكانوا أهل بلاء حسن، وعزلت الأعراب عنا ناحية، فقاموا من ورائنا، وإنما كنا نؤتى من الأعراب.

وأجهض أهل السوابق والبصائر العدو، فهم في نحورهم، ما يجد أحدٌ قد خلا إلا أن يقتل رجلاً منهم ، أو يخرج فيقع فيخلف مقامه آخر حتى أوجعنا فيهم، وبان خلل صفوفهم وضجوا من السيف، ثم اقتحمنا الحديقة فضاربوا فيها وغلقنا الحديقة، وأقمنا على بابها رجلا لئلا يهرب منهم أحد، فلما رأوا ذلك عرفوا أنه الموت فجدوا في القتال ودكت السيوف بيننا وبينهم ما فيها رمي بسهم ولا حجر ولا طعن برمح حتى قتلنا عدو الله مسيلمة"[1].

أقول فيما رواه رافع بن خديج من شدة بأس جماعة مسيلمة الكذاب حمله على حمل الآية عليهم.

ثانياً: أن أبا بكر ﷺ قبل أن يأمر خالد بالتوجه إلى قتال مسيلمة بعد انتصاره على طليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة ، وتبعه غطفان وهوازن وبعض القبائل، قد أرسل إلى مسيلمة جيشاً بقيادة عكرمة بن أبي جهل واردفه بجيش آخر بقيادة شرحبيل بن حسنة إلا أن عكرمة تعجل قبل أن يصل جيش شرحبيل فهزمه مسيلمة ، ولما وصل شرحبيل وكان أوصاه أبو بكر أن ينتظر جيش خالد لئلا يقع ما وقع به عكرمة إلا أنه استهان بأمر مسيلمة فلم ينتظر ، فهزم هو الآخر ، فكتب إليهما أبو بكر أن يتوجها إلى غيره ، ولم يهزم جيش من الجيوش التي أرسلها أبو بكر سوى هذين الجيشين الذي هزمهم مسيلمة الكذاب، لشدة بأس قومه ، وهذا مما يدل على أنهم المرادون بهذه الآية.

---

[1]. كتاب خالد بن الوليد، تأليف الأستاذ محمد صادق عرجون، ص ١٦١-١٦٢. ط مكتبة الكليات الأزهرية.

ثالثاً: لما بلغ كثير من الأعراب انتصارات الجيوش التي أرسلها أبو بكر تسلل كثير منهم يعلن توبته ، ويطلبون من أبي بكر أن يبايعهم على الإسلام ويؤمنهم، فكان جوابه لهم: بيعتي إياكم وأماني لكم أن تلحقوا بخالد بن الوليد ومن معه من المسلمين، فمن كتب إلي خالد بأنه حضر معه اليمامة فهو آمن، فليبلغ غائبكم شاهدكم، ولا تقدموا علي، واجعلوا وجوهكم إلى خالد. فقال أبو جهم : أولئك الذين لحقوا بخالد من الضاحية هم الذين كانوا انهزموا بالمسلمين يوم اليمامة وكانوا على المسلمين بلاء[1].

رابعاً: روى ضمرة بن سعيد المازني أن ال مسلمين لم يلقوا عدواً أشد لهم نكاية من بني حنيفة، لقوهم بالموت الناقع، والسيوف اصلتوها قبل النبل وقبل الرماح وقد صبر المسلمون لهم، فكان المعول على أهل السوابق أي المهاجرين والأنصار.

وفي ذلك تأكيد بأن المراد بالآية بني حنيفة جماعة مسيلمة الكذاب.

خامساً: حدث خالد بن الوليد ﷺ فقال: شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ولا اضرب بها، ولا أثبت إقداماً من بني حنيفة يوم اليمامة. إنا لما فرغنا من طليحة، ولم تكن له شوكة، قلت كلمة، والبلاء موكل بالقول: وما بنو حنيفة إلا كمن لقينا، فلقينا قوماً ليسوا يشبهون أحداً.

ولقد صبروا لنا من مطلع الشمس إلى صلاة العصر، حتى قتل عدو الله، فما ضرب أحدٌ بعده بسيف، ولقد رأيتني في الحديقة وعانقني رجل منهم، وأنا فارس وهو فارس، فوقعنا عن فرسينا ثم تعانقنا بالأرض، فأجؤه بخنجر في سيفي، وجعل يجؤني بمعول في سيفه ، فجرحني سبع جراحات، وقد جرحته جرحاً أثبته به فاسترخى في

---

[1]. انظر المصدر السابق خالد بن الوليد الصادق عرجون، صفحة ١٦٢-١٧٦ وإتمام الوفاء في مسيرة الخلفاء للخضري، ص ٣٤-٣٥، وحركة الردة للدكتور علي العتوم ص ٩٨-٩٩.

يدي، وما بي حركة من الجراح، وقد نزفت من الدم، إلا أنه سبقني بالأجل، فالحمد لله على ذلك.

فهذه رواية قائد القواد خالد بن الوليد بأن المراد **"ستدعون إلى قوم أولي بأسٍ شديدٍ تقاتلونهم أو يسلمون "** بنو حنيفة جماعة مسيلمة الكذاب.

سادساً: كان مسيلمة الكذاب قد أصاب حبيب بن زيد وعبد الله بن وهب الأسلمي من المسلمين، فقال لهما : تشهداني أني رسول الله؟ فقال الأسلمي: نعم، فأمر به فحبس مثقلاً بالحديد، وقال له حبيب بن زيد: لا أسمع، فقال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم فأمر به فقطع وكلما قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال : لا أسمع، فإذا قال أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم، حتى قطعه عضواً عضواً، فقطع يديه من المنكبين ورجليه من الوركين، ثم أحرقه بالنار، وهو في كل ذلك لا يتزعزع عن قوله، ولا يرجع عما بدأ به حتى مات حرقا بالنار، بعد شديد العقاب.

فلما تهيأ خالد إلى اليمامة جاءت أم حبيب وهي نسيبة بنت كعب وتكنى أم عمارة إلى أبي بكر الصديق ﷺ، فأستأذنته في الخروج فقال لها أبو بكر: "ما مثلك يحال بينه وبين الخروج، قد عرفناك وعرفنا جرأتك في الحرب فاخرجي على اسم الله".

قالت أم عمارة: "فلما انتهينا إلى الحديقة بعد إذ تداعت الأنصار : أخلصونا أخلصونا؛ ازدحمنا على الباب وأهل النجدة من عدونا في الحديقة، قد انحازوا يكونون فئة لمسيلمة، فاقتحمنا الحديقة فضاربناهم ساعة، والله ما رأيت أبذل لمهج أنفسهم منهم، وجعلت أقصد إلى عدو الله مسيلمة لأن أراه، ولقد عاهدت الله لئن رأيته لا أكذب عنه أو أقتل دونه، وجعلت الرجال تختلط والسيوف بينهم تختلف، وخرس القوم، فلا صوت إلى وقع السيوف حتى بصرت

بعدو الله، فشددت عليه ، وعرض لي رجل منهم فضرب يدي فقطعها، فو الله ما عرجت عليها حتى انتهيت إلى الخبيث وهو صريع، وأجد ابني عبد الله قد قتله....".

وروى البخاري في صحيحه عن وحشي قال: "خرجت مع الناس فإذا رجل قائم في ثلمة جدار ، وكأنه جمل أورق ، ثائر الرأس، فرميته بحربتي فوضعتها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، ووثب إليه رجل من الأنصار، فضربه بالسيف على هامته ". وفي رواية غير البخاري، أن وحشياً قال: "لما اختلط الناس في الحديقة، وأخذت السيوف بعضها بعضا، نظرت إلى مسيلمة وما أعرفه، ورجل من الأنصار يريده، وأنا من ناحية أخرى أريده فهززت من حربتي حتى رضيت منها، ثم دفعتها عليه، وضربه الأنصاري ، فربكم أعلم أينا قتله".

فيكون بذلك عبد الله بن زيد ﷺ ابن أم عطية الأنصار ووحشي اشتركا في قتله.

فلله در حبيب بن زيد ذلك البطل المسلم وقد قطع عضواً عضواً ليقول كلمة بلسانه فما رجع عن إيمانه، ولله در أخيه عبد الله وأمهما أم عمارة نسيبة بنت كعب التي كانت نموذجاً من نماذج المرأة المسلمة.

وكان المسلمون قد حملوا ع لى بني حنيفة حملة صادقة حتى أدخلوهم حديقة مسيلمة، وكانت تسمى حديقة الرحمن، فقال البراء بن مالك أحد شجعان الأنصار ألقوني عليهم في الحديقة ، فألقوه عليهم، فقاتل عن الباب حتى فتحه، فدخله المسلمون، وأكثروا القتل في بني حنيفة حتى قتل مسيلمة الكذاب واشترك في قتله وحشي

قاتل حمزة بن عبد المطلب ورجل من الأنصار [1] وهو عبد الله بن زيد ابن أم عمارة الأنصارية.

مما سبق يظهر لنا أن البراء بن مالك ﷺ، هو أول من سن العمل الفدائي البطولي في الإسلام، حيث طلب إلقائه في الحديقة وتمكن من فتح باب الحديقة، والتي سميت فيما بعد بحديقة ا لموت لكثرة من قتل بعد ذلك من بني حنيفة، حيث لم يكد يسري نبأ قتل مسيلمة الكذاب في قومه بعد اقتحام الحديقة حتى انفرط عقدهم وانحلت عزائمهم ووهنوا أمام المسلمين مع ما نالهم من القتل والجراح، فتفرق من بقي منهم إلى الحصون ، وتحاجز الناس على النصر والظفر للمسلمين، والهزيمة والخذلان على أهل اليمامة بني حنيفة، كل ذلك بفضل عمل الفدائي المسلم البراء بن مالك ﷺ.

فهذه الأدلة الستة التي ذكرتها تثبت بأن المراد بقوله تعالى : **"قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأسٍ شديدٍ تقاتلونهم أو يسلمون، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً** " بنو حنيفة جماعة مسيلمة الكذاب.

أقول: وهذا إعجاز سادس من حيث الإخبار بالشيء قبل وقوعه . وهو أن المتخلفين بأنهم سوف يدعون لقتال قوم أشداء في القتال وحكم هؤلاء القوم هو الرجوع إلى الإسلام أم القتل، وهم بنو حنيفة جماعة مسيلمة الكذاب ، وقد كان أبو بكر الصديق يقول لهؤلاء الأعراب عندما يأتونه تائبين ويسألونه أن يبايعهم على الإسلام ويؤمنهم؛ بيعتي إياكم وأماني لكم أن تلحقوا بخالد بن الوليد ومن معه من المسلمين، فمن كتب إلي خالد بأنه حضر معه اليمامة فهو آمن، فليبلغ غائبكم شاهدكم، ولا تقدموا علي، واجعلوا وجوهكم إلى

[1]. إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للخضري، ص٣٥.

خالد. قال أبو جهم: أولئك الذين لحقوا بخالد من الضاحية هم الذين كانوا انهزموا بالمسلمين يوم اليمامة وكانوا على المسلمين بلاء. وكانت سياسة أبو بكر إلحاقهم بجيش خالد تمحيصاً لإسلامهم، وتكثيراً لسواد المسلمين بهم، ولشغلهم بالجهاد عن التفكير بهزيمتم فلا يكونون شوكة في ظهر جيوش المسلمين[1].

قوله تعالى: **"ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليماً"**: لقد بين الله في هذه الآية بعد أن فضح المتخلفين، بأن الذي تخلف عن عذر حقيقي ليس عليه إثم أو مؤاخذة ، فقال ليس على الأعمى إثم في التخلف عن القتال في سبيل الله، ولا على الأعرج حرج، وذلك لأن الأعمى والأعرج معهما عذر دائم، هو العجز المستمر عن تكليف الخروج والجهاد، والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ، وهذه رحمة من الله، لا يحاسب إلا القادر ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ومن يطع الله ورسوله في كل أمر ونهي، يدخله جنات واسعة تجري من تحتها الأنهار، ومن يعرض عن طاعة الله ورسوله فالعذاب الأليم ينتظره يوم القيامة.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. أخبر القرآن بأن المتخلفين من الأعراب في غزوة الحديبية سيأتون يطلبون منه الخروج معه عندما يريد أن يخرج لغزوة خيبر طمعاً في غنائمها وهذا نوع من الإعجاز القرآني.

---

[1] انظر خالد بن الوليد تأليف محمد صادق عرجون، الفصل التاسع، واقعة اليمامة بين خالد ومسيلمة من صفحة ١٥٧-١٨٧.

٢. إن الله خصص غنائم خيبر لأهل الحديبية جزاء إيمانهم وطاعتهم لله ورسوله وأمر رسوله بأن لا يس مح لأحد من المتخلفين من الأعراب بالخروج معه عقاباً لهم.
٣. أن المتخلفين عندما يمنعون من الخروج مع المسلمين في غزوة خيبر ، سوف يقولون إن الله لم يمنعها بل أنتم الذين تحسدونا على ما نأخذه معكم من غنائمها.
٤. أمر الله رسوله أن يخبر المتخلفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد، وهم بنو حنيفة، وأن حكم هؤلاء القتال أو الإسلام، وهذا من الإعجاز القرآني أيضاً وهو بالإخبار بالشيء قبل وقوعه.
٥. من رحمة الله بعباده أنه لا يعاقب العاجز عن القيام بالجهاد بسبب تخلفه عنه، حيث لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

بيعة الرضوان وأسباب عدم حصول القتال

قال الله تعالى:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا(٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا(٢٦) ﴾

معاني المفردات:

تحت الشجرة: الشجرة هي شجرة كبيرة كانت في وادي الحديبية وكان رسول ﷺ يستظل بها أثناء البيعة.

فعلم ما في قلوبهم : أي فعلم ما في قلوبهم من الصدق في البيعة والسمع والطاعة لله ورسوله.

السكينة: الطمأنينة والثبات ورباطة الجأش.

أثابهم : أي جازاهم وأعطاهم جزاء طاعتهم واستجابتهم لله ولرسوله.

فتحاً قريباً: هو فتح خيبر حيث حصل قبل ثلاثة أشهر من رجوعهم من الحديبية.

ومغانم كثيرة تأخذونها : هي ما حصل للمسلمين م ن غنائم بعد صلح الحديبية.

فعجل لكم هذه : غنائم خيبر حيث خصها بأهل بيعة الرضوان لا يشاركهم فيها أحد.

وكف أيدي الناس عنكم: المراد بالناس الأعراب الذين كانوا حول المدينة ويهود خيبر ، حيث ألقى الله سبحانه الرعب في قلوبهم، فلم ينالوا بنساء المسلمين وذراريهم بسوء أثناء خروجهم إلى الحديبية.

ولتكون آية للمؤمنين : أي عجل لكم مغانم خيبر وكف أيدي الأعراب واليهود عنكم، ليكون ذلك دليلا على صدق وعده سبحانه، برعايته لعباده المؤمنين الصادقين لهم ونسائهم وذراريهم.

ويهديكم صراطاً مستقيما ً: أي يهديكم إلى الطريق المستقيم في نشر دعوة الإسلام.

وأخرى لم تقدروا عليها: أي غنائم أخرى لم تقدروا عليها بقوتكم.

قد أحاط الله بها: أي قد أعدها وحفظها وخصصها لكم.
كف أيديهم عنكم: أي منعهم من قتالكم.
وكف أيديكم عنهم: أي منعكم من قتالهم.
ببطن مكة: المراد بالحديبية قرب مكة.
أظفركم عليهم: أي جعلكم ظافرين بهم متفوقين عليهم.
صدوكم: منعوكم.
الهدي: هو ما يهدى لله في الحرم ليذبح فيه ويوزع على الفقراء.
معكوفاً: أي محبوسا ومخصصا ليذبح ويوزع على الفقراء في الحرم.
محله: أي المكان الذي يجوز فيه ذبحه، وهي منى.
أن تطؤهم : أصل الوطء الضرب بالرجل على الأرض، والمراد هنا تهلكوهم، والجملة بدل من رجال ونساء، والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا رجالا ونساء أبرياء.
معرة: أي مكروه وعيب يوجب الأسف والألم.
تزيلوا: أي تميز المؤمنون في مكة عن الكافرين.
الحمية: هي الأنفة والغضب والكبرياء.
حمية الجاهلية : هي الناتجة ع ن طيش وغرور بالعظمة الكاذبة وهي عادة جاهلية تحمل صاحبها على أن يتحكم في غيره ويمنعه مما يريد، لمجرد إغاظته كما فعلوا في منع المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية.
ألزمهم: أي أمرهم بها ووفقهم لها.
كلمة التقوى: كلمة التوحيد والإخلاص . وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الشرح:

أعلن الله سبحانه عن رضاه عن المؤمنين لأجل تلك البيعة التي حصلت في الحديبية ، لما علم من صدق إيمانهم وإخلاصهم في بيعتهم، وأنزل عليهم طمأنينته ورباط جأش ، وجزاهم في مقابل ذلك فتحاً قريباً وهو فتح خيبر ، ومغانم كثيرة يأخذونها من خيبر، وذلك بعد عودتهم من الحديبية، وكان الله غالباً على أمره، موجداً أفعاله وأقواله مقتضى حكمته، فهو حكيم في تدبيره وصنعه.

وهذا إعجاز بالإخبار بالشيء قبل وقوعه في هذه السورة وهو إخبارهم بفتح خيبر بعد فترة وجيزة، ثم الحصول على ما فيها من غنائم، وقد حصل الأمران قبل مضي أقل من ثلاثة أشهر من صلح الحديبية، حيث خرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة إلى الحديبية سنة ست من الهجرة كما ذكر ابن إسحق[1]، وأقام بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر[2]، أي في أوائل السنة السابعة.

فقد خرج رسول الله ﷺ لغزو يهود خيبر الذين كانوا أعظم مهيج للأحزاب ضد رسول الله ﷺ في غزوة الخندق ، وعندما فشلت الأحزاب في اقتحام المدينة وجنت قريظة عقبى غدرها، لم يهدأ يهود خيبر ، أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين ، بل إنهم شرعوا يصلون حبالهم بقبيلة غطفان والأعراب الذين حولهم ، ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى ، تكيد من جديد لمحمد ﷺ وصحبه، بل إنهم كانوا يريدون أن يغيروا على المدينة هم وبعض الأعراب، عندما كان رسول الله ﷺ في الحديبية، ولكن الله كف أيديهم عن مهاجمة المدينة بأن قذف في قلوبهم الرعب، ولذلك فما

---

[1]. السيرة النبوية لابن هشام تحقيق وشرح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، جـ ٣، ص٣٤١، إحياء التراث العربي/ بيروت.

[2]. المصدر السابق، جـ٣، ص٣٤٢.

أن عاد رسول ﷺ من الحديبية، إلا أن أمر أهل الحديبية بالتجهيز لغزو خيبر.

وإن اليهود في حروبهم مع المسلمين لا يعتمدون على تسيير الجيوش في الفضاء الرحب تصيب ويصاب منهم، فهم يكرهون اللقاء في الميادين المكشوفة ، وديدنهم الذي لا ينفكون عنه ، هو الكفاح من وراء الجدران في الحصون والمستعمرات، فما أن رأوا جيش المسلمين قادم نحوهم ، حتى هرعوا إلى حصونهم المشيدة ومن أشهر حصونهم التي كانت في خيبر حصن السلالم، وحصون النطاه وحصن الوطيح ، وكانت تنوف على سبعة حصون، فحاصرهم رسول الله ﷺ في حصونهم، فلما ضاقت بهم السبل وطالت مدة الحصار، خرجوا للقتال فخرج يهودي يطلب المبارزة فقتله علي، وخرج مرحب وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه، فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير ، ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم وتبعوهم حصناً حصناً، فاستسلموا طالبين حقن دمائهم وقد استولى المسلمون في هذه الغزوة على أموال كثيرة، ومكث اليهود يزرعون الأرض على النصف، وبذلك تحقق وعد الله لهم بفتح خيبر، والاستيلاء على ما فيها من غنائم.

وكان سبب بيعة الرضوان أن رسول الله ﷺ اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مقصده، وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول في زيارة أقاربهم، وأمر عليه السلام عثم ان أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة ، فيبشرهم بقرب الفتح، وأن الله مظهر دينه، فدخل عثمان في جوار أبان بن سعيد الأموي، وبلغ ما حُمِّل، فقالوا: إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت، فقال لا أطوف ورسول الله ممنوع، ثم إنهم حبسوه، فشاع عند المسلمين أن عثمان قتل، فقال عليه السلام حينما سمع ذلك : لا

نبرح حتى نناجزهم الحرب. ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك (سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان) على الموت وعدم الفرار أثناء القتال فشاع أمر هذه البيعة في قريش فداخلهم منها رعب عظيم، وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلا عليهم مكرز ابن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين عليهم يصيبون منهم غرة فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم، ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدءوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلا وقتل من المسلمين واحد.

عند ذلك خافت قريش وأرسل سهيل بن عمرو للمكالمة في الصلح، فلما جاء قال: يا محمد إن الذي حصل ليس من رأيي عقلائنا بل شيء قام به السفهاء منا، فابعث إلينا بمن أسرت، فقال حتى ترسلوا من عندكم، عند ذلك أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه[1]، ثم تم بعد ذلك الصلح الذي سبق ذكره في أول السورة وهو:

١. وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات.
٢. من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون برده.
٣. أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام ثم يأتي العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيم فيها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس.
٤. من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه[2].

---

[1]. نور اليقين للخضري، ص ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، المكتبة البخارية الكبرى بمصر.
[2]. المصدر السابق، ص ٢١٨.

وقد دخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول ﷺ، ودخلت قبيلة بكر في عهد قريش.
وقد ذكر الله سبحانه بعد أن وعدهم بفتح خيبر مع الحصول على غنائمها.
فقوله تعالى : **"وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما ً"**: أي أن الله وعدكم معشر المؤمنين مقابل جهادكم وصبركم وتقواكم مغانم كثيرة تأخذونها في الوقت المقدر لها، فعجل لهم هذه أي غنائم خيبر، وكف أيدي اليهود الذين كانوا في خيبر والأعراب الذين كانوا حول المدينة عن مهاجمتهم، حيث ألقى في قلوبهم الرعب أثناء غيابهم في الحديبية، حيث لم ينالوا نساء المؤمنين وذراريهم بسوء وذلك دليل لرعاية الله لعباده المؤمنين، ولأجل أن يهديهم إلى الطريق المستقيم في طاعة الله ورسوله، كما وعدهم مغانم كثيرة وهي التي سوف تحصل لهم الأتية التي سوف تحصل لكم من أعدائكم، حيث فتحوا بلاد الفرس والروم، واستولوا على غنائم كثيرة بسبب هذه الفتوحات ، وعند حصول هذه الغنائم يكون ذلك دليلاً وعلامة على صدق وعد الله لهم، ويهديهم طريقاً مستقيماً بطاعة الله واتباع رسوله، وكان الله قادراً على كل شيء لا يعجزه شيء أبدا، فهو القادر على نصرة أوليائه وهزم أعدائه، فإن الله سبحانه ينصر عباده المتقين ويرزقهم من حيث لا يحتسبون.
قوله تعالى : **"ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً"**، أي ولو قاتلكم أهل مكة ولم يقع الصلح بينكم وبينهم، لغلبوا وانهزموا ولم يثبتوا أمامكم ، ثم لا يجدون أي ولي يتولى أمرهم بالحفظ والرعاية، ولا نصيراً يدافع عنهم.

قوله تعالى: **"سنت الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً"**: أي هذه سنة الله في خ لقه، وقد مضت في الأمم السابقة وهي نصرة عباده المؤمنين حيث تكون العاقبة لهم وخذلان الكافرين، فما تقابل المؤمنون والكافرون في معركة فاصلة إلا نصر الله المؤمنين على الكافرين، قال الله تعالى: **"كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ"**[1]، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وذلك كما نصر يوم بدر أولياءه المؤمنين على قلة عَددهم وعُددهم وكثرة المشركين وكثرة عددهم.

أقول: ولكنه قد يتأخر النصر لحكمة هو يعلمها، وقد تظهر لنا هذه الحكمة وقد لا تظهر ، وقد يكون عدم النصر عقاباً لذنب ارتكبه بعض المؤمنين وذلك كما حصل في غزوة أحد ، عندما خالف الرماة أوامر رسول الله ﷺ، وانشغل قسم من المسلمين بجمع الغنائم حينما ولى المشركون الأدبار في المعركة ، فعاقبهم الله بسبب ذلك.

وكذلك كما حصل في غزوة حنين إذ أعجبتهم كثرتهم حيث كان عددهم اثني عشر ألفاً، ولكن كان قسم من هم لم يستقر الإيمان في قلوبهم وخاصة الذين أعلنوا إسلامهم من أهل مكةً ، ولكن لما ثبت رسول الله ﷺ هو والمهاجرون والأنصار وبعض من حسن إسلامه من أهل مكة، مثل عكرمة بن أبي جهل نصرهم الله مع قلة من ثبت معه.

قال تعالى: **"وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مك ة من بعد أن أظفركم عليهم "**: فقد بين الله سبحانه في هذه الآيات لأهل الحديبية الأسباب التي اقتضت حكمته سبحانه حصول هذا الصلح؛ فبين أن حصول هذا الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم

---

[1] . سورة المجادلة: آية ٢١.

ضعاف ولأن المشركين أقوياء ولكنه لحكمة، فلوا قاتلهم مشركو مكة لغلبوا وانهزموا أمامهم، ثم لا يجدون بعد هزيمتهم ، صديق يتولى أمرهم أو معين ينصرهم.

وقوله تعالى: **"وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم، وكان الله بما تعلمون خبيراً"**:

فهذه الآية تذكر نصر الله لهم في الحديبية قبل عقد الصلح، وهي ما سبق ذكره، حيث أرسل المشركون خمسين رجلا ليطوفوا بمعسكر المسلمين علهم يصيبون منه غرة ، فمكنهم الله منهم ، حيث أسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة ﷺ، وهرب رئيسهم مكرز بن حفص ، ولم يصب المسلمون بأي سوء، وذلك دليل على أنه لو حصل قتال لانتصر المسلمون ، والله سبحانه كان مطلعاً على ما حصل له م من ظفر على المشركين ، وأنكم قادرين على تحقيق النصر عليهم، وأهل مكة يستحقون أن تقاتلوهم وتنتصروا عليهم لأنهم كفروا بالله ورسوله، ومنعوكم من دخول المسجد الحرام، ومنعوا الهدي الذي سقتموه محبوسا معكم على التقرب به من بلوغ مكانه الذي ينحر فيه، ولولا كراهة أن ت صيبوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات بين الكفار بمكة ، مبعثرين ومنتشرين بين كفار مكة، ممنوعين من الهجرة ، لا يمكنكم تمييز أماكنهم ، لمكناكم من قتال أهل مكة، ولكن لم آمركم رفقا بهؤلاء أن تهلكوهم بغير علم منكم، فيلحقكم من أجل قتلهم عار وخزي ومكروه ، يوجب الأسف والندم والألم، فلو تميز المؤمنون عن الكافرين لسمحنا لكم في قتالهم.

وكذلك كان المنع لسبب آخر، وهو أن هناك طائفة من المشركين قد قدر الله لها أن تدخل في دين الله، حيث أسلم بعد صلح الحديبية ناس من أهل مكة منهم خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وعثمان

بن طلحة ﷺ كما أسلم بعد فتح مكة خلق كثير منهم عكرمة بن أبي جهل ﷺ وحسن إسلامهم.
فعدم حصول القتال وتوقيع الصلح كان فيه خير للإسلام والمسلمين، ولذلك سمي فتحاً مبيناً.
فأهل مكة في منعهم لرسول الله ﷺ ومن معه من أداء العمرة ، هو من أنفة وكبرياء الجاهلية الناتجة عن الغرور والش عور بالعظمة الكاذبة.
إلا أن المسلمين لم يقاتلوهم بسبب هذه الحمية الجاهلية حيث أنزل الله الطمأنينة والهدوء والثبات على رسول الله وعلى المؤمنين الذين كانوا معه وألزم المؤمنين الثبات على العقيدة، وما تقتضيه كلمة **لا إله إلا الله محمد رسول الله،** وكانوا أحق بها وأهلاً لها وكان الله محيطا علمه بكل شيء.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. رضوان الله على المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبايعوه تحت الشجرة.
٢. بسبب ما علم الله ما في قلوب أهل الحديبية من الإيمان والإخلاص والصدق في المبايعة أنزل الطمأنينة والثبات في نفوسهم وجازاهم بفتح خيبر مع حصولهم على غنائمها لا يشاركهم فيها أحد.
٣. أن إخبار الله أهل الحديبية بفتح خيبر على أيديهم واستيلائهم على غنائمها وحصول ذلك بعد أقل من ثلاثة أشهر ، هو إعجاز في السورة بالإخبار بالشيء قبل وقوعه.

٤. وعد الله المؤمنين بغنائم كثيرة سوف يحصلون عليها وهي غنائم البلاد التي فتحوها بعد ذلك ، سواء غنائم هوازن وثقيف والغنائم التي حصلوا عليها من المرتدين، وغنائم بلاد فارس والروم ، وغيرها من البلاد التي فتحوها بعد ذلك ، وهو إعجاز أيضاً بالإخبار بالشيء قبل وقوعه.

٥. لقد حمى الله نساء المؤمنين وذراريهم من مهاجمة الأعراب واليهود أثناء غيابهم في الحديبية، حيث كف الله أيديهم عنهم فلم يهاجموهم وهذا مما يدل على رعاية الله لعباده المؤمنين الصادقين.

٦. عدم مقاتلة أهل الحديبية لأهل مكة كان لحكمة إلهية الله يعلمها ، ومنها أن هناك رجالٌ مؤمنين ونساء مؤمنات لم يعلمهم المسلمون، فلو حصل القتال لأهلكوهم فيصيبهم بذلك مكروه وألم وأسف من قتال إخوانهم المسلمين ، كما أن الله يعلم بأن هنا ك من أهل مكة سوف يدخلون في رحمة الله ويعلنون إسلامهم وإيمانهم.

٧. أن منع أهل مكة لرسول الله ﷺ هو ومن معه من أداء العمرة هو من أنفة وكبرياء وغرور الجاهلية.

تحقيق رؤيا رسول الله ﷺ

قال تعالى:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا(٢٨)﴾

معاني المفردات:

الرؤيا: هي رؤيا النبي ﷺ في المنام أنه دخل المسجد الحرام هو والصحابة رضوان الله عليهم.

محلقين ومقصرين: أي بعضهم حالق شعره وبعضهم مقصر له، لأن الحاج والمعتمر إذا فرغ من مناسكه تحلل، بحلق شعر رأسه أو يقصره.

ليظهره على الدين كله : أي يعليه على جميع الأديان وذلك بما اشتمل عليه من قوة الدليل ، وما اشتمل عليه من أحكام وتشريعات تصلح لكل زمان ومكان ، مع تحقيق النصر لاتباعه.

الشرح:

لقد رأى رسول الله ﷺ في المنام قبل خروجه إلى الحديبية أنه هو وأصحابه دخلوا مكة لتأدية العمرة ، وقد حلقوا شعر رؤوسهم وبعضهم قصره، وأنهم كانوا آمنين أثناء تأدية العمرة ورؤيا الأنبياء نوع من الوحي، فحدث بذلك أصحابه ففرحوا واستبشروا برؤيا رسول الله ﷺ، فلما خرجوا مع رسول الله ﷺ ولم تتحقق

الرؤيا في ذلك العام وحصل الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش وذلك بوحي وأمر من الله، مع أنهم كانوا قادرين على دخول مكة عنوة، فقد حدث بسبب ذلك دهشة في معسكر المسلمين للطريقة التي سلكها رسول الله ﷺ بموافقته على الشروط التي اشتمل عليها الصلح، ولم يستشرهم في هذا الصلح.

وقد داخلهم في هذا الصلح أمر عظيم، فقد سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: سبحان الله، كيف نرد إليهم من جاءنا مسلماً ولا يردون من جاءهم مرتداً؟ فقال عليه السلام : "إنه من ذهب منا إليهم فـأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً".

وأما بالنسبة لصد المسلمين عن أداء العمرة في ذلك العام فكان أشد تأثيرا في قلوبهم، لأن رسول الله ﷺ أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت الحرام، وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك، فقال رضي الله عنه: "وهل ذكر أنه في هذا العام؟ فقال: لا، فقال: فإنك تأتيه وتطوف به. ثم أتى رسول الله فقال: "ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : بلى، قال : أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلى، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا؟".

قال: **"أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني"**[1].

وقد نزلت هذه الآيات من ضمن آيات سورة الفتح التي نزلت أثناء رجوع رسول الله ﷺ من الحديبية.

فالله سبحانه يؤكد هذه الرؤيا، ويعلن أنها رؤيا حق ، وأنه لم يكذب رسول الله فيما رأى، ولكنه ليس في الرؤيا أنه يدخلها عام ست من الهجرة، وإنما أراه صورة الدخول التي ستحصل له، وقد حقق الله له ذلك بعد عام في عمرة القضاء، فهذه الآية تأكيد لصحة رؤيا

[1]. قال الألباني: حديث صحيح وهو من تمام قصة الحديبية، أنظر فقه السيرة للغزالي، طبعة دار الكتب الحديثة بمصر، ص٣٥٩.،أنظر نور اليقين للخضري، ص١٩٠،١٩١. وأنظر تفسير المراغي الجزء السادس والعشرون: ص١١٢

رسول الله ﷺ، حيث أخبر بأنهم سوف يدخلون المسجد الحرام في العام المقبل بمشيئة الله، وحالة كونهم آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وآمنين من مهاجمة قريش لهم أثناء أدائهم لهذه العمرة لا يخافون في ذلك أحداً، وفي قوله لا تخافون تأكيد بأنهم سوف يكونون آمنين وقت دخولهم، وأثناء تأديتهم للعمرة، وأثناء إقامتهم، وأثناء خروجهم، لا يخافون أثناء ذلك أحداً من مشركي مكة، ولا من غيرهم من المشركين.

وقد تحقق ما أخبرت به الآيات حين أدائهم ال عمرة حيث خرج رؤساء قريش وقادة مكة ومعظم أهلها إلى جبل أبي قبيس كارهين رؤية المسلمين وهم داخلون مكة ويطوفون البيت الحرام، مع الأمان فيها مدة ثلاثة أيام.

وقد دخل المسلمون مكة وأمامهم رسول الله ﷺ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ماسك بعنان ناقته، وهو يقول: **لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده** ، وطاف عليه السلام وهو على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة ، لأن المشركين قالوا سيطوف اليوم بالكعبة قوم أهلكتهم حمى يثرب، فقال عليه السلام: **"رحم الله امرأً أراهم من نفسه قوة"**، وأضطبع عليه السلام بردائه وكشف عضده اليمنى شأن الفتوة، وفعل مثله المسلمون، وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين كما رأى عليه السلام في منامه[1].

وذلك بعد سعيهم بين الصفا والمروة سبعة أشواط.

وكانوا يهرولون بين الميلين الأخضرين إحياء لذكرى هرولة هاجر عندما كانت تبحث عن الماء لابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام، بعد أن أسكنها سيدنا إبراهيم هي وابنها مكة.

---

[1]. نور اليقين للخضري، ص٢١١- ٢١٢. مصدر سابق.

قوله تعالى : **"فعلم ما لم تعلموا "**: أي فعلم تعالى في الصلح من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموا أنتم، يريد ما قدره الله بسبب هذا الصلح، فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت ال حرب، رغب الناس في الإسلام، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألف وأربعمائة وفي غزوة فتح مكة بعدها بعامين كان معه عشرة آلاف.
قوله تعالى : **"فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا ً"**: فجعل من دون دخولهم المسجد الحرام فتحاً قريباً ، وهو فتح خيبر الذي حصل مباشرة بعد صلح الحديبية.
وذلك قبل أداء عمرة القضاء، وقبل فتح مكة، حيث حصلت عمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة وحصل فتح مكة في السنة الثامنة.
فإخبار الله لهم بأن رؤيا رسول الله ﷺ سوف تتحقق في العام المقبل، وقد تحقق نوع من الإعجاز القرآني أيضاً وهو بالإخبار بالشيء قبل وقوعه، وقد تحقق.
وقد أكد الله لهم ضرورة تحقيق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام لأداء العمرة، قال تعالى: **" هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ "**: أي هو الله جل وعلا الذي أرسل رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام بالهداية التامة الشاملة الكاملة للناس كافة، ليبطل وينسخ جميع الأديان التي سبقته، ويجعله ظاهراً عليها بقوة الدليل والبرهان وكمال التعاليم السليمة التي اشتمل عليها، وهذا تأكيد لما ورد في سورة التوبة وهو قوله تعالى: **"هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ"**[1].

[1]. سورة التوبة، الآية ٣٣.

وذلك بسبب فساد تلك الديانات السابقة التي حرفها أصحابها وغيروها وبدلوها حيث اشترى علماؤهم بآيات الله ثمناً قليلاً، وكما هو حاصل الآن من علماء التبرير الذ ين يحرفون القرآن عن مواضعه إرضاء للحكام، والله غالب على أمره ولكن المنافقين لا يعلمون.

"وكفى بالله شهيدا ً": أي كفى بأن الله شاهد على أن محمد رسول الله، وكفى بأن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان ، وبسبب كماله وصلاحيته لكل زمان ومكان، وأن هذا كائن لا محالة رغم أنف المنافقين والكافرين.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. بيان بأن رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام بأنها رؤيا حق، وأنها سوف تتحقق كما رآها في منامه.
٢. أن الله وعد المؤمنين قبل أداءهم للعمرة، وقبل فتح مكة بفتح خيبر وقد تحقق هو الآخر أيضا.
٣. لقد تعهد الله سبحانه بإعلاء هذا الدين على جميع الأديان التي سبقته، بما ورد فيه من قوة الدليل والبرهان ، وبما اشتمل عليه من تعاليم تصلح لكل زمان ومكان.

ذكر صفات النبي ﷺ وصحبه
في التوراة والإنجيل

قال الله تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾

معاني المفردات:

أشداء: جمع شديد وهو الغليظ القاسي.

رحماء: جمع رحيم وهو من في قلبه رحمة وشفقة.

فضلا: أي ثواباً.

ورضوانا: أي يبتغون بأقوالهم وأعمالهم مرضاة الله عليهم.

سيماهم : من السُّومة (بالضم) وهي العلامة، والمراد به النور والخشوع والتواضع في وجوههم ، وليس المراد ما يكون في جبهة بعض الرجال من علامة سوداء، فقد يكون قلبهم أقسى من الحجر.

أخرج شطأه : أخرج فروعه وثماره ، وهو في القمح والشعير كالسنابل، وفي الشجر كالفروع والثمار.

آزره: أعانه وقواه.

فاستغلظ: أي صار الزرع غليظاً.

فاستوى على سوقه : أي استقام على قصبه وأصوله والسوق واحدة الساق.

الشرح:

بعد أن ذكر الله أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، أي بدين الإسلام ليجعل دينه ظاهراً على جميع الأديان بما اشتمل عليه من أدلة وبراهين، تثبت أنه منزل من عند الله، وقال وكفى بالله شاهدا على ذلك، ذكر اسم هذا الرسول وصفاته وصفات من معه من الصحابة رضوان الله عليهم ، والتي ورد ذكرها في التوراة التي نزلت على سيدنا موسى، والصفات التي وردت في الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام فقال : محمد رسول الله حقاً لا كما ينكر المشركون واليهود والنصارى رسالته، وأصحابه الذين آمنوا به وأيدوه ونصروه وكانوا سنداً لهذا الدين ورفع مناره.

وصفهم الله في التوراة بأنهم أشداء أقوياء على الكفار، متراحمون متعاطفون فيما بينهم، فهم كما قال الله عنهم في آية أخرى : **" أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ "**[1]، وقال : **" قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً"**[2].

فهم أمام أعدائهم وأعداء الإسلام من المشركين والكافرين الحاقدين على الإسلام وأهله يظهرون أمامهم الشدة والصلابة فهم عباد الله وأولى بأس شديد. ولكنهم رحماء وذو شفقة ورحمة على إخوانهم المؤمنين ، وعلامة التواضع والرأفة ظاهرة عليهم، قلوبهم رقيقة بعضهم على بعض، لينة أنفسهم عليهم فهم كما قال الله فيهم : **"أَذِلَّةٍ**

---

[1]. سورة المائدة، الآية ٥٤.

[2]. سورة التوبة، آية ١٢٣.

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ". وقد شبههم رسول الله ﷺ بالجسد الواحد فقال : **"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر** "[1]، وقوله : **"المؤمن للمؤمن كالبينان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه"**[2]. وهم كل من رآهم يراهم راكعين ساجدين لله حيث يصلون في اليوم والليلة خمس صلوات مفروضة عليهم، وذلك خلاف صلاة النفل ، وخلاف تهجدهم في الليل، فهم ركعاً سجداً، رهبان بالليل أسود بالنهار، وهم يطلبون في ذلك رحمة الله ورضواناً . قال تعالى : **" قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ "**[3]، هذا هو مثلهم الذي ورد في التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، وقد ذكر هذه الصفات لليهود في التوراة لأجل أن يعرفوه ويؤمنوا به عند مجيئه.

أقول: هذه هي صفات الرسول القائد، ومن كان معه من الصحابة رضوان الله عليهم فيما بينهم، فالمؤمن بالله حقاً ، هو الذي لا يلين من أعداء دينه من الصهاينة والصليبيين وأعداء رسوله ، والذين استولوا على بلادهم فهو شديد عليهم ، وليس خانع وذليل أمامهم ، يستجدي من أموالهم.

أما بالنسبة للمسلمين اليوم فقد أصبحوا أذلة أمام أعدائهم الصهاينة والصليبيين ، أشداء وغلاظ على إخوانهم المسلمين حكاماً ومحكومين، فقد أصبحنا أشداء، وغلاظ فيما بيننا ، لا يرحم بعضنا بعضاً، تعلوا معظم أصحاب السلطان والأموال الكبرياء والعظمة والجبروت ، وأمام أعداء الله من الصهاينة والصليبيين الحاقدين

---

[1] . رواه مسلم.
[2] رواه مسلم.
[3] . سورة الأنعام، آية ١٦٢-١٦٣

على الإسلام وأهله والذين استولوا على بلادنا أذلاء صاغرين مستجدين منهم أموالهم، ونطلب منهم أن يمنوا علينا بإرجاع بعض بلادنا التي سلبت منا ، بعد أن تركنا الجهاد في سبيل الله وخنعنا لحب الدنيا وكراهية الموت، واتخذناهم أولياء ، وقد قال الله تعالى : **" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"**[1]

أما مثل الرسول ﷺ ومن معه في الإنجيل الحقيقي الذي نزل على سيدنا عيسى عليه السلام حيث بشر به وأمرهم باتباعه فقال: **"ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع "** أي أن مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج أفراخه وفروعه التي تتفرع على جانبيه فصار هذا الزرع غليظاً بعد أن كان ضعيفاً فاستقام على أصوله، يعجب هذا الزرع الزارع بقوته وكثافته وحسن مظهره، ليغتاظ بهم الكفار.

فهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ، يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفاً، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته وأفراخه فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان، فهذا مثل ضربه الله لبدء الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم ، فأعجب رسول الله ﷺ وصحابته بانتشاره وقوته واغتاظ بذلك الكافرون بسبب أن الله أتم نوره رغم أنوفهم.

أقول: هذه الأوصاف التي ذكرها الله لرسول الله وصحابته رضوان الله عليهم في الإنجيل، وذلك أيام عز الأمة الإسلامية، أما الآن فقد

---

[1]. سورة المائدة، الآية ٥١.

تفككت هذه الأمة فانقسموا إلى دويلات ضعيفة متناحرة فيما بينها وأصبحت مثلا في الخمول والجهل والضعف والتفرقة ، وأصبحت كالهشيم الذي تذروه الرياح، وذلك بسبب تخليها عن تطبيق شريعة الله وإقامة حدوده، وتكالبها على الدنيا وكراهيتها للموت في سبيل الله.

ولعل الله أن يرسل من يعيد لهذه الأمة عزتها وكرامتها ، بتطبيق أحكام الله وإقامة حدوده ، والسير على منهج رسول الله بإعلان الجهاد في سبيل الله إعلاء كلمة الله، أمام من وقف في سبيل نشره ، لتعود لهذه الأمة كرامتها قال الله تعالى: **"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** "[1]، أي أن الله ﷻ وعد الذين صدقوا في إيمانهم وأذعنوا لأوامر الله ونواهيه فعملوا الأعمال الصالحة وعدا مؤكداً حقاً ، أن يجعلهم خلفاء كغيرهم في الأرض كمن سبقوهم وارثين لهم في الحكم والولاية في الأرض ، يعمرونها بالعدل بعد الظلم، كما كان الشأن فيمن سبقهم، وأن يمكن لهم الدين الإسلامي الذي ارتضاه ديناً لهم ، حيث يثبت قواعده و أسسه ، فيستقر ولا يزعزعه أحد، فتكون لهم المهابة والسلطان، وأن يبدل حالهم من الخوف إلى أمن واستقرار، حيث يعبدون الله مطمئنين لا يشركون معه أحدا في العبادة، ومن اختاروا الكفر بعد هذا الوعد الصادق، أو ارتدوا عن الإسلام فوالوا أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء الإسلام والمسلمين ، فأولئك هم الخارجون المتمردون الجاحدون

[1] . سورة النور، أية: ٥٥.

لدين الله، وأن صلوا وصاموا وزعموا بأنهم مسلمون فلذلك لن ينصرهم الله ولن يتحقق الوعد الذي وعده لعباده المؤمنين المتقين.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. أن من صفات المتقين الصادقين أنهم غلاظ على من خالف دينهم وناوأهم العداء، رحماء فيما بينهم.
٢. أنهم دائما مقيمين الصلاة التي فرضها الله عليهم ، فهم راكعون ساجدون لله وحده لا شريك له في أكثر أوقاتهم.
٣. إنهم يرجون بطاعتهم لله ، الثواب من ربهم والزلفى إليه ورضاه عنهم.
٤. أن من العلامات البارزة لهم نور في وجوههم ، وخشوع وخضوع يعرفه أولوا الألباب، وهذه الصفات لهم ذكرها في التوراة الحقيقية التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام.
٥. ذكر الله صفات الرسول ﷺ في الإنجيل ، فشبههم بزرع قد قوي فأخرج فروعه وثماره، وقويت سيقانه واستقامت ليغيظ به الكفار، فهو تشبيه تمثيلي، وقد حصل لرسول الله ﷺ ومن معه، حيث قام يدعو وحده فآمن به بعض الناس، ثم كثروا وزادوا حتى أصبح قوة أغاظت الكافرين، حيث انهدم عزهم وزالت دولهم كدولة الروم وفارس، وعلت راية الإسلام ، وهذا نوع من الإعجاز الذي أخبره به قبل وقوعه حيث حصل فامتلأت قلوبهم غيظاً منها وحقداً عليهم إلى اليوم.
٦. أن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة لذنوبهم يوم القيامة، وبالأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

خلاصة ما يستفاد من هذه السورة

أولاً: إن المراد بقوله **"إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً"** هو صلح الحديبية حيث لم يفتح في الإسلام قبله أعظم منه ، إذ دخل في الإس لام بعده وقبل فتح مكة أضعاف من كان أسلم قبل ذلك ، وذلك خلال سنتين إذ كان عدد المسلمين في الحديبية ألف وأربعمائة وفي فتح مكة عشرة آلاف.

ثانياً: إن في هذه السورة ظهر المؤمنون الصادقون المتقون ، وظهر المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله إلى أداء العمرة خوفا على أنفسهم.

ثالثاً: أن عقد صلح الحديبية كان بإيحاء من الله لرسوله ، وليس باجتهاد منه، فلذلك لم يستشر الصحابة في أمره.

رابعاً: أن بسبب صلح الحديبية اختلط المسلمون بالمشركين مما حبب الإسلام إلى قلوب كثير منهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً.

خامساً: ظهر في هذا الصلح؛ أن ما يريده الله لعباده خير مما يريدونه لأنفسهم، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

سادساً: لقد كافأ الله رسوله بسبب استجابته لأمر الله في عقد الصلح بأربعة أمور وهي: ١) غفران ما تقدم من ذنوبه الصغائر وما تأخر، ٢) إعلاءه للدين الذي بعثه به الله ورفع مناره بين الأمم، ٣) إرشاده إلى الطريق المستقيم في تبليغ هذا الدين ونشره بين الأمم، ٤) فتح مكة بعد سنتين من هذا الصلح بغير قتال.

سابعاً: من نعم الله على أهل بيعة الرضوان في الحديبية بسبب طاعتهم لله ولرسوله كانت أي ضاً أربع نعم، ١) إنزال الطمأنينة والثبات على قلوبهم فازدادوا إيماناً مع إيمانهم، ٢) مكافأتهم بفتح

خيبر ، ٣) واستيلاءهم على غنائم خيبر وجعلها خاصة بهم ، ٤) إدخالهم الجنة يوم القيامة وتكفير السيئات جزاء طاعتهم لله ورسوله.

ثامنا : إن عذاب المنافقين والمنافقات أشد من عذاب المشركين والمشركات، حيث قدمهم بالذكر، وقد غضب الله على كلا الفريقين ولعنهم، وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً، إضافة ما أصابهم من الهم والغم بسبب ظهور الإسلام وقهرهم.

تاسعاً : في عقد النبي ﷺ بمفرده صلح الحديبية مع قريش، ظهر للناس كافة أن النبي ﷺ إلى جانب النبوة والرسالة هو القائد ورئيس الدولة الإسلامية وصاحب السلطان وأن الإسلام دين ودولة.

عاشراً: على كل مسلم أن ينصر دين الله بالجهاد في سبيل الله ويعظم الله ويسبحه في كل وقت.

الحادي عشر: إن الذي ينقض عهده مع الله ولا ينصر دينه بالجهاد في سبيل الله بمحاربة أعداء الله من المعتدين الصهاينة والصليبيين الحاقدين على الإسلام وأهله، إنما ضرر ذلك يعود عليه في الدنيا والآخرة وذلك بالخزي في الدنيا والعذاب يوم القيامة.

الثاني عشر : من سنن الله في خلقه أن ينصر عباده المؤمنين الصادقين المتقين وأن يخذل الكافرين.

الثالث عشر: من أسباب عدم حصول القتال بين المسلمين وأهل مكة في الحديبية هو؛ كراهية أن يصيب المسلمون رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات من المستضعفين الممنوعين من الهجرة بغير علم منهم، وأن هناك طائفة من أهل مكة سيدخلون في الإسلام بعد صلح الحديبية.

الرابع عشر: وصف الله رسوله ومن معه في التوراة بما يلي:

١. أنهم غلاظ على من خالفهم وناوأهم العداء ، ورحماء فيما بينهم.
٢. أنهم تراهم يكثرون من الصلاة والإخلاص لله يبتغون بذلك التقرب من الله وثوابه، ونيل رضاه عنهم.
٣. أنهم لهم سيمى في وجوههم يعرفون بها وهو النور في وجوههم وخشوع وخضوع يعرفه أولوا الألباب والفطن.

الخامس عشر : وصف الله الرسول ﷺ المؤمنين في الإنجيل مشبههم، بزرع نمى وارتفع واستقامت سيقانه ، فقوي هذا الزرع، فاستغلظت سيقانه بعد أن كان ضعيفاً، وفي ذلك إغاظة للكفار، فهو تشبيه تمثيلي لما حصل لرسول الله ﷺ حيث قام يدعو وحده ، فآمن به بعض الناس وكثروا حتى أصبحوا قوة، فاستولوا على الجزيرة العربية، وأزالوا دولة الفرس والروم اللتين كانتا أقوى دول العالم فاغتاظ بذلك أعداء الإسلام والحاقدين عليه.

السادس عشر : لقد اشتملت هذه السورة على نوع من الإعجاز القرآني وهو؛ الإخبار بأشياء قبل وقوعها ، وهذا مما يدل على أن القرآن منزل من قبل الله علام الغيوب ﷻ من ذلك:

١. إخبار الله ﷻ بأن المتخلفين من الأعراب سوف يأتون يعتذرون، فيقولون شغلتنا أموالنا وأهلونا عن الخروج معك لأداء العمرة.
٢. أنهم يطلبون من الرسول ﷺ كذباً أن يستغفر لهم عن عدم خروجهم، لأنهم يقولون ما ليس في قلوبهم.
٣. بيان أن السبب الحقيقي في تخلف الأعراب ظنهم أن الرسول ﷺ ومن معه سوف يهلكون على أيدي قريش وزين ذلك في قلوبهم.

٤ -٥.أن الله أخبر أهل الحديبية بفتح خيبر مع استيلائهم على ما فيها من أموال خاصة بهم ، لا يشاركهم فيها أحد من الأعراب المتخلفين.
٦. أن المتخلفين من الأعراب عند خروج المسلمين إلى خيبر يطلبون السماح لهم بالخروج معهم طمعاً بالغنائم.
٧. أن المتخلفين من الأعراب حين يمنعون من الخروج مع المؤمنين من أهل الحديبية سوف يدعون أن منعهم من الخروج هو حسد من أهل الحديبية ، وذلك خوفاً أن يشاركوهم في غنائمها وليس أمراً من الله، وذلك لأنهم لا يفقهون من أمر الله وحكمته إلاَّ القليل.
٨. أن الأعراب المتخلفين سوف يدعون لقتال قوم أولي باس شديد وأن حكم هؤلاء القتال أو الإسلام وقد حصل، وهم بنو حنيفة جماعة مسيلمة الكذاب حين ارتدوا بعد وفاة الرسول ﷺ، وبعد أن هزم جماعة مسيلمة جيش عكرمة بن أبي جهل وجيش شرحبيل بن حسنة فدعاهم أبو بكر للالتحاق بجيش خالد بن الوليد لقتال مسيلمة وقومه.
٩. وعد الله المؤمنين بغنائم كثيرة سوف يحصلون عليها غير غنائم خيبر ، وذلك ما حصل لهم من غنائم حين فتحوا بلاد فارس وبلاد الروم وغيرهما.
١٠. تصديق رؤيا رسول ﷺ حين رأى في منامه أن دخل مكة هو ومن معه من المؤمنين معتمرين لا يخافون أحدا.

هذه الأمور العشرة التي أخبر الله ﷻ بها في هذه السورة قد حصلت بعد نزولها إذ نزلت أثناء رجوع المسلمين من الحديبية ، وهذا مما يدل على أن القرآن منزل من قبل الله علام الغيوب.

تفسير سورة الحجرات

بين يدي السورة:
هذه السورة تتضمن كثيراً من الآداب العامة، ومكارم الأخلاق، والتهذيب والتأديب، والتي ينبغي أن تسود المجتمع المسلم في كل عصر ومكان.
ففيها كثيرٌ من الاتجاهات والقيم الإسلامية الإيجابية التي ينبغي أن يتخلق بها كل مسلم.
كما فيها نهيٌ عن كثير من الاتجاهات السلبية التي ينبغي أن يبتعد عنها كل مسلم.
كما بينت هذه السورة أنه على المؤمنين أن لا يسبقوا الله ورسوله بالقول أو الحكم في أمر من الأمور، وهذا نهي صريح عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله وسنة رس وله، لأن الرسول ﷺ مبلغ عن الله وحافظ لشريعته.
ومع أن آياتها ثماني عشرة آية ، فقد ورد فيها خمس نداءات للمؤمنين بقوله تعالى : **"يا أيها الذين آمنوا "**، قبل معظم ما ورد فيها من أوامر أو نواهي، وهو نداءٌ من الله بالصفة التي تربطهم به، وهي صفة الإيمان، ليستجيش الإي مان الكامن في نفوسهم فيسرعوا إلى الاستجابة.
وقد نهت الأعراب عن ادعاء الإيمان قبل أن يستقر الإيمان في قلوبهم، ثم أبانت من هم المؤمنون الصادقون.
وختمت بالنهي عن المن على الرسول ﷺ بالإسلام، وبينت أن المنة لله عليهم بهدايتهم إلى الإيمان إن كانوا صادقين في دعواهم.

موقف المسلمين من أحكام الله
مع بيان آداب الحديث والزيارة
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٥)﴾

معاني المفردات:

لا تقدموا: المراد لا تقطعوا في مسألة بحكم قبل أن يحكم الله فيها ورسوله.

بين يدي الله ورسوله: المراد أمامها.

تجهروا له بالقول: الجهر ظهور الشيء بإفراط بحاسة السمع أو حاسة البصر.

أن تحبط أعمالكم: أو خوف أن تبطل أعمالكم، أي ثوابها.

يغضون أصواتهم : الغض هو النقصان من النظر أو الصوت، والمراد يخفضون أصواتهم أدباً معه ﷺ.

امتحن الله قلوبهم : تقول العرب؛ امتحن الصائغ الذهب إذا أذابه ليخلصه مما أحاطه مما ليس منه، والمراد اختبرها فأخلصها.

من رواء الحجرات: من خارج حجرات نسائه ﷺ.

سبب النزول:

"قدم وفد من بني تميم على النبي ﷺ فدخلوا المسجد فنادوا النبي ﷺ: أن أخرج إلينا يا محمد، فإنَّ مدحنا زين وإنَّ ذمنا شين، فآذى ذلك صياحهم النبي ﷺ، فخرج إليهم فقالوا : إنا جئناك نفاخرك، وكأنَّ فيهم الأقرع بن حابس وعيينه بن حصن وقيس بن عاصم"[1] وبعد أن أعلنو ا إسلامهم، أشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يؤمر عليهم (القعقاع بن معبد) وقال عمر رضي الله عنه بل أمر الأقرع بن حابس وذلك قبل أن يطلب منهما ذلك فنزلت هذه الآيات[2].

الشرح:

ابتدأت هذه السورة الكريمة بمناداة عباد الله المؤمنين بالصفة التي تربطهم بالله بقوله: **"يا أيها الذين آمنوا"** ليستجيش الإيمان الكامن في نفوسهم فيسرعوا للاستجابة، وطلبت منهم بعد ذلك بما يجب أن يكون عليه المؤمنون من الأدب الرفيع الذي أدبهم الله به، وذلك باتجاه شريعة الله وأمر رسوله، وهو أن لا يسبقونه بالقول، وألا يبرموا أمراً، أو يبدوا رأياً أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول ﷺ، حتى يستشيروه أو يطلب منهم ذلك، وعليهم أن يتمسكوا بشريعة الله وبإرشادات الرسول ﷺ، والتي لا تصدر إلا عن وحي أو حكمة فيها سعادتهم وخيرهم في الدنيا والآخرة.

وفي الآية دليل على انه لا يجوز لأحد من المؤمنين أن يقدم رأيه على كتاب الله وسنة رسوله ، لأن الخطاب للمؤمنين كافة في كل عصر وفي كل مكان، وذلك أن يكونوا دائماً ملتزمين بأحكام الله

---

[1] . أسباب النزول للواحدي.

[2] . انظر مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثالث، ص٣٥٦، محمد علي الصابوني.

وسنة رسوله قولاً وعملاً وتطبيقاً فيما يصدرونه من أحكام، وقد قال تعالى: " **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ**"[1].

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل ﷺ حيث قال له النبي ﷺ حيث بعثه إلى اليمن : "**بم تحكم ؟**" قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: "**فإن لم تجد؟**" قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: "**فإن لم تجد ؟**: قال: ﷺ: أجتهد رأيي، فضرب على صدره، وقال : "**الحمد لله الذي وفق رسول رس ول الله ﷺ لما يرضى رسول الله**".

وقوله تعالى: "**واتقوا الله إن الله سميع عليم** ": أي واتقوا الله فيما أمركم به، إن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم.

قوله تعالى : "**يا أيها الذي آمنوا لا ترفعوا صوتكم فوق صوت النبي و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**": هذه الآية تأمرهم بالتأدب في مخاطبة الرسول ﷺ، فقد أمرتهم بخفض أصواتهم ولا يرفعونها على صوت النبي ﷺ عند التحدث معه، بحيث لا تبلغ أصواتهم حد الجهر عند مخاطبته كما يجهر بعضهم في الحديث مع البعض، وذلك مخافة بطلان أعمالهم الصالحة ا لتي عملوها وذهابها سدى من حيث لا يشعرون بذلك، فإن الإنسان إذا تعود عادة واستحكمت فيه فعلها بدون فكر و نظر، وربما كانت سيئة، فأكلت حسناته وهو لا يشعر، فعلى المؤمن أن يراقب نفسه، ويحاسبها فيما يصدر منها بقصد أو غير قصد، وذلك قبل أن يحاسب عليها يوم القيامة.

كما ينبغي مخاطبته يا أيها النبي ، أو يا أيها الرسول ، أو يا أبا القاسم، ولا يجوز مناداته كمناداة بعضهم، بمناداتهً باسمه كقولهم يا محمد.

---

[1] . سورة المائدة، آية ٤٤.

قال الله تعالى: **"إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم"**: فقد مدح الله ﷻ الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله فقال : إن الذين يغضون أصواتهم ولا يرفعونها عند رسول الله ﷺ قوم أخلص الله قلوبهم وصفاها وأعدها للتقوى ، وهي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وهؤلاء لهم مغفرة واسعة لذنوبهم ، وثواب بالغ غاية العظمة.

فقد بينت هذه الآية ما ينبغي أن تكون طريقة حديثهم مع رسول الله ﷺ وكيفية مخاطبته.

فقد أمرتهم بتوقيرهم له في حديثهم ومخاطبتهم له ، توقيراً له في قلوبهم ينعكس على نبرات أصواتهم.

وذلك بأن يخفضوا أصواتهم توقيراً له واحتراماً وحذرتهم من مغبة رفع أصواتهم عند الحديث معه وذلك كما يحصل في محادثتهم لبعضهم، لأن ذلك كان يؤذي النبي ﷺ، وهذا مما يؤدي إلى بطلان ثواب الأعمال وهم لا يشعرون بذلك.

وفي قوله تعالى في آخر الآية: **"والله غفور رحيم"**: ترغيب بالتوبة بعد التحذير من ضياع ثواب أعمالهم ، بسبب رفع أصواتهم أمام رسول الله ﷺ.

وهذا الأسلوب أسلوب تربوي مؤثر في تربية الأفراد والمجتمع، وهو ما سلكه القرآن في تربية الصحابة رضوان الله عليهم.

وهو بعد النهي عن الذنب وبيان عقوبته عند الله، حيث يفتح باب التوبة لمن أناب إلى الله وتاب عن ذنبه.

فمن شروط التوبة الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات ، والعزم على أن لا يعود، وإن كانت التوبة تتعلق بحق العباد فمن شروطها رد الحقوق إلى أصحابها.

واحترام الرسول ﷺ واجب في حياته وبعد مماته، فقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ وقد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال لهما : أتدريان أين أنتما؟ ثم قال : من أين أنتما؟ قالا : من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً"[1].

وعرف العلماء هذا التأدب الواجب لرسول الله ﷺ بعد موته، وقالوا : إنه يكره رفع الصوت عند قبره كما يكره رفع الصوت أمامه في حياته عليه الصلاة والسلام احتراماً له في كل حا ل وفي كل زمان.

وقد روي أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين لما ناظر الإمام مالك رضي الله عنه رفع صوته في المناظرة، فقال له الإمام مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدب قوماً فقال : **"لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي"** وذم قوماً فقال : **"إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** "،وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً.

فاستكان وخضع أبو جعفر لقول الإمام مالك رضي الله عنه.

فهاتان الآيتان قد علمتا الصحابة رضوان الله عليهم الأدب مع رسول الله ﷺ والاستماع منه والتحدث تلقاءه، كما علمتنا الأدب حول قبره الشريف، كما تعلمنا الأدب مع العلماء المتقين، والكبراء الصالحين، وكذلك يعلمان الأدب مع الأمهات والآباء وقد قال تعالى بالنسبة للأبوين : **" فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْ لاً كَرِيمًا"**.

---

[1] . رواه البخاري.

وفي الحديث الشريف: " ليس من أمتي من لم يبجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه"[1].

قوله تعالى : "**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم**": في هذه الآية ذم للأعراب الذين جاءوا إلى مسجده وأخذوا ينادونه من وراء حجراته وهي بيوت نسائه، بقولهم : يا محمد اخرج إلينا، وذلك عندما كان مستريحاً في واحدة منها، فقال : "**أكثرهم لا يعقلون** "، أي أن معظمهم لا يعقلون ما ينبغي لمقامك من التوقير والإجلال والاحترام ولا يفقهون آداب الزيارة.

وفي قوله تعالى: "**أكثرهم**" فيه عدل ودقة حيث لم يقل كلهم، لأن فيه تبيين أنه على الغالب، حيث قد يكون بعضهم لم تكن المناداة من رأيهم، ولكن كانوا معهم واستنكروا ذلك منهم في نفوسهم ، ولكنهم لم ينهوهم عن ذلك، لعلو مكانة من نادى منهم: وقد نعت من نادى منهم بأنهم "**لا يعقلون**" مع أنهم لم يكونوا مجانين حتى وصفوا بذلك، ولكن الذي صدر منهم فعله عن غير أناة وروية، يقع فيما لا يرتضيه العقل السليم، فلذلك يوصف من يفعله بأنه لا يعقل ، لأنه كان الواجب عليهم - كما ورد في الآية الثانية - أن يصبروا حتى يخرج كعادته في وقت الصلاة ، وذلك أفضل لهم من هذه المناداة من وراء الحجرات ورسول الله وهو جالس مستريح في بيت إحدى زوجاته، وهذا ما يقتضيه الأدب والتوقير اللائق بشخص النبي ﷺ، وهذا هو الواجب أيضاً مع كل استاذ وعالم، فينظر حتى يخرج في وقت خروجه المعتاد وفي المكان الذي يكون فيه عادة، ولا يزعجه في المناداة من خارج بيته في وقت استراحته.

---

[1] . رواه الإمام أحمد والطبراني.

وإن كان هناك حاجة ضرورية لمقابلته، فعلى الزائر أن يأتي باب منزله، ويستأذن بقرع الباب، أو ضرب الجرس في الوقت المناسب للزيارة وذلك بالنسبة لهذا العصر.
وإذا استأذن ثلاثاً ولم يؤذن له فلينصرف ، وقد قال رسول الله ﷺ: **"من استأذن ثلاثاً ولم يؤذن له فلينصرف"**[1].
وفي هذه الأيام يمكن استعمال الهاتف للاستئذان للزيارة وتحديد موعدها، وهذا من الآداب العامة للزيارة ينبغي مراعاتها.
وكانت حجرات النبي ﷺالتي يعيش بها زوجاته مسقوفة بجريد النخل، وعلى أبوابها المسوح من شعرٍ أسود، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد، وقد أدخلت في عهد الوليد بن عبد الملك بأمره مسجد رسول الله ﷺ فبكى الناس لذلك.
وقال سعيد بن المسيب يومئذ : لوددت أنهم يتركونها على حالها لينشأ ناسٌ من أهل المدينة، ويقدم القادم من أهل الآفاق ، فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر فيها.
وبعد بيان ذنبهم وتصرفهم حبب إليه م التوبة والإنابة ورغبهم بالمغفرة والرحمة، بسبب ما صدر منهم من ذنب حتى لا يبقوا في حيرة وألم مما اقترفوه من ذنب فقال تعالى: **"والله غفور رحيم"**.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. على المسلمين أن لا يقدموا على كتاب الله وسنة رسوله قولاً أو حكماً وأن ذلك يؤدي إلى بطلان ثواب أعمالهم وهم لا يشعرون.

[1] . تفسير المراغي.

٢. عدم رفع الصوت في مسجد رسول الله ﷺ وعند قبره الشريف.
٣. لا يجوز رفع الصوت على العالم والمُعلم والوالدين وكل ذو جاه وسلطان من المسلمين المتقين، لأن ذلك يخالف أحكام الله ويدل على عدم الاحتشام وترك الاحترام لهم.
٤. من آداب الزيارة عدم المناداة من خارج البيت لمن تريد زيارته، وإنما ينبغي طرق الباب أو الاتصال المسبق.
٥. على المسلم أن يختار الوقت المناسب للزيارة أو الاتصال بالهاتف لمن يريد الاتصال به أو زيارته، ولا يكون ذلك في وقت راحته في منزله أو نومه.
٦. أن الذي يتصرف تصرفاً يجر عليه اللوم والعتب والتبعة أن يسارع إلى التوبة، والاعتذار لمن أساء إليه.
٧. من آداب إصدار الأحكام على جماعة أو فئة من الناس عدم التعميم ، (وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : **"أكثرهم لا يعقلون"**) ولم يقل كلهم لا يعقلون.

التثبت في تلقي الأخبار

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٨) ﴾

معاني المفردات:

الفاسق: هو الخارج عن حدود الدين من قولهم فسق الرطب، إذا خرج من قشره، ومنه الكاذب.

بنبأ: هو الخبر ذو أهمية وفائدة عظيمة.

فتبينوا: أي تثبتوا من صحته قبل أن ترتبوا عليه أحكاماً، أو تنقلوه وتنشروه.

أن تصيبوا: أي خشية أن تصيبوا.

بجهالة: أي جاهلين حالهم وحقيقة أمرهم.

فتصبحوا: أي تصيروا.

نادمين: الندم هو التحسر من خطأ في أمر فات، وذلك مما يؤدي إلى الغم اللازم والتمني انه لم يقع.

لعنتم: أي لوقعتم في مشقة ومكروه.

زينه: حسنه في نفوسكم.

الفسوق: الخروج عن طاعة الله وأوامره ومنه الكذب.

العصيان: عدم الانقياد لأوامر الله، وأصله أن يمتنع الرجل بعصاه.

الراشدون: هم المستقيمون على طريق الحق الثابتون عليه، وهو ضد الغي.

سبب النزول:

ذكر ابن كثير في سبب نزول هذه الآية فقال : قال مجاهد وقتاده : أرسل رسول الله ﷺ (الوليد به عقبة) إلى بني المصطلق ليجمع صدقاتهم فتلقوه بالصدقة، فظن أنهم سيقتلونه، فرجع، فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك، زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونه فلما جاءوا أخبروا خالداً رضي الله عنه أنهم متمسكون بالإسلام وسمعوا آذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد رضي الله عنه فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكذا ذكر غير واحد أنها نزلت في (الوليد بن عقبة) والله أعلم.

الشرح:

يخاطب الله عباده المؤمنين بالصفة التي تربطهم به : إن جاءكم فاسق أي غير موثوق بصدقه، وعدالته بخبر فتثبتوا أولاً لتعرفوا حقيقة الخبر من كذبه ، وقفوا على حقائق الأمور قبل الوقوع في الخطأ ، بسبب هذا الخبر الكاذب، فتصيبوا قوماً بسوء وأنتم جاهلون حقيقة الأمر، فتصيروا بسبب ما فعلتم نادمين، واعلموا أن بينكم رسول الله صاحب الخلق الحسن، والذي لا يسرع في تصديق كل ما يقال ، والمعصوم عن اتباع الهوى ، لو يسمع وشاياكم ويصغي بسمعه إلى الكاذبين في أقوالهم ، ويطيعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور ، بالاستعجال في الأمور بدون الروية والتثبت من صحة الأخبار، لوقعتم في مشقة ومكروه وحرج وظلم، فتندموا في ارتكاب هذا الظلم الذي يغضب الله سبحانه وتعالى لأنه يجانب الحق والعدل.

فالآية تعزز مبدأ وجوب التمحيص والتدقيق والتثبت في صحة الأخبار.
كما تقرر أن الكاذب يوصف بأنه فاسق ، لأن الفسق معناه خروج الشيء من الشيء على وجه الفساد، يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره، فكل خروج عن حدود الشرع كالكذب والغيبة والنميمة يعتبر فسقاً في الإسلام، ولذلك سمي الوليد بن عقبة فاسقاً لكذبه، وفي ذلك تنفير من الكذب ، وزجراً عن المناداة والاستعجال في الأمر من غير تثبت.
ويبدو من قوله تعالى: **"واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم"** أنه كان من بعض الصحابة اندفاع عند الخبر الذي نقله الوليد بن عقبة، وأشاروا على النبي ﷺ أن يعجل بعقابهم بمهاجمتهم، وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضباً منهم لمنع الزكاة، ومنهم من تريث، فجاء هذا النص في الآية ليذكرهم بفضل رسول الله ﷺ فيهم الذي لم يطعهم فيما أشاروا به ، بل أرسل من يتثبت من صحة الخبر من مصدره، ولم يأمر بقتالهم قبل التثبت من صدق خبر الوليد بن عقبة، فلو استجاب لما أشاروا إليه من قتالهم ولما يشيرون عليه في كثير من الأمور ، لوقعوا في العنت أي المشقة لأن عواقب من لا يتثبتوا من صحة الأخبار وخيمة.
ولما كان الكذب على رسول ﷺ وعلى من كان معه من ا لصحابة قليل ما يقع، قيل **"إن جاءكم فاسق بنبأ"** بحرف الشك ولم يقل إذا جاءكم.
وقد أمر القرآن الكريم المسلمين ألا يجروا وراء الظنون ، ولا يعولوا على الأخبار بدون التحقق من صحتها، وأن يعولوا على العلم الصحيح، ويطالبوا بالبرهان الصادق على صحة الأخبار التي

تصل إليهم، قال تعالى: **"وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً"**[1].

وقد أمر الله ﷻ عباده بأن يكونوا صادقين في كثير من الآيات في كتاب الله، منها؛ قوله تعالى: **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ"**[2]، كما أمر رسولُ الله ﷺ بالصدق ونهى عن الكذب من ذلك؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **"عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا"**[3].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **"أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من نفاق حتى يدعها، إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"**[4].

ولقد كان معظم الصحابة يتوقفون في قبول خبر الآحاد لمقام الشبهة في ثبوته، فقد اختلفت طرق الصحابة في الأخذ به : (فلم يكن أبو بكر الصديق ولا عمر يقبلان من الأحاديث إلا ما شهد اثنان أنهما سمعاه من رسول الله ﷺ، وهذا في عصر الصحابة رضوان الله عليهم وليس في عصر التابعين أي عصر تدوين الحديث؛ روى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ قال: روى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال لها:

---

[1]. سورة الإسراء، آية ٣٦.
[2]. سورة التوبة، آية ١١٩.
[3]. متفق عليه.
[4]. متفق عليه.

ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال : سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال: هل معك أحد؟ وشهد محمد بن سلمة بمثل ذلك فانفذه لها").

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: كنت جالساً في مجلس من مجالس الأ نصار، فجاء أبو موسى فزعاً، فقالوا : ما أفزعك، قال: أمرني عمر أن آتيه وأتيته، فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، فقال : ما منعك أن تأتيني؟ فقلت : إني أتيت فسلمت على بابك ثلاثاً فلم تردوا علي فرجعت، وقد قال رسول الله ﷺ : **"إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع"** قال عمر : لتأتيني على هذا بالبينة، فقالوا : لا يقوم إلا أصغر القوم ، فقام أبو سعيد فشهد معه، فقال عمر لأبي موسى: إني لم أتهمك ولكنه الحديث عن رسول الله ﷺ، - وذكر أن عمر قال لأبي موسى وقد روي له حديثاً- لتأتيني على ما تقول ببينة، فخرج فإذا ناس من الأنصا ر فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا : سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، فقال عمر: أما إني لا أتهمك ولكنني أحببت أن أتثبت.

وكان علي كرم الله وجهه يستحلف الراوي إلا أبا بكر رضي الله عنه فإنه كان يقبل روايته من غير أن يستحلفه.

وربما رد الصحابي الحديث فلم يعمل به، إما لضعف ثقته بالراوي، أو لعلمه بما ينسخه أو لمعارضته لما هو أقوى منه في نظره، وإليك الأمثلة ما يوضح ذلك.

روى أبو هريرة حديث: **"من حمل جنازة فليتوضأ"**.

فلم يأخذ ابن عباس به وقال : "لا يلزمنا الوضوء في حمل عيدان يابسة".

ولم تقبل عائشة بما ثبت عنه في الصحيحين "متى استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يضعها في الإناء، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده " وقالت : "كيف نصنع (بالمهراس)؟ - والمهراس الصخرة المنقورة - ورد عمر حديث فاطمة بنت قيس لما قالت : "بت زوجي علي طلاقي فلم يجعل لي رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى "[1]، وهناك أمثلة كثيرة وردت في السنة استدرك بعض الصحابة بعضهم على بعض، وذلك مما يدل على تثبتهم في صحة خبر الآحاد، لأنه يحتمل الصدق والكذب.

فقد ظهر وضع الحديث على رسول الله ﷺ في زمن الصحابة، فقد روى الإمام مسلم؛ "إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذا لم يكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه، وقال محمد بن رافع حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال : "إنما كنا نحفظ الحديث، والحديث يحفظ عن رسول الله ﷺ، فأما إذ رُكب كل صعبٍ وذلول فهيهات، وقال: وحدثني أبي أيوب سليمان بن عبيد الغيلاني، حدثنا أبو عامر يعني العقدي، حدثنا رباح عن قيس بن سعد عن مجاهد قال : جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله ﷺ.... قال رسول الله ﷺ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه، فقال يا ابن عباس، ما لي لا آراك لا تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع، فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله ﷺ ابتذرته أبصارنا وأصغينا إليه

[1] . مقدمة صحيح مسلم ج ١، ص١٠، وقوله ركب الصعب والذلول؛ أصل الصعب العسر المرغوب عنه من الإبل، والذلول السهل المرغوب فيه، فالمعنى فسلك الناس كل مسلك كما يحمد ويذم.
وقوله لا يسمع لحديثه: أي لا يستمع ولا يصغي لقوله.

بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف[1].

قوله تعالى"**ولكن حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشد ون**": أي أن الله ﷻ حبب للمؤمنين الإيمان بالله، واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

ومعنى الإيمان بالله هو التصديق بأنه ﷻ موجود موصوف بصفات الجلال والكمال منزه عن صفات النقص، وأنه واحد في ذاته واحد في صفاته وهو فرد صمد، خالق جميع المخلوقات متصرف فيما يشاء ويفعل في ملكه ما يشاء، وهذا الإيمان وهو التصديق بأركان الإيمان، حسنه في قلوبكم حيث يشعر الإنسان المؤمن بحلاوته.

وقد قال رسول الله ﷺ: "**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**".

كما ذكرت الآية أن من صفات المؤمنين أيضاً كراهيتهم الكفر، وهذا يستتبع كراهيتهم لكل ما يؤدي إليه من قول أو عمل . وكذلك كراهيتهم للفسوق وهو الخروج عن حدود شريعة الله كما كره إليهم عدم طاعة أوامر الله سبحانه وأن من اتصف بهذه الصفات هم الراشدون أي الذي وحدهم عرفوا طريق الهداية والرشد وثبتوا عليها.

قوله تعالى: "**فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم**": أي أن تحبيب الإيمان في قلوبهم ، وكراهيتهم الكفر والفسوق والعصيان ، بفضل

[1] . رواه الإمام مسلم، المطبعة العامرية، ج١، طبعة نظارة المعارف.

من الله عليهم ونعمة منه سبحانه عليهم، حيث أوجد ذلك في قلوبهم وفي نفوسهم ومن طبائعهم.
فالله سبحانه محيط علمه بكل شيء يعلم المؤمن الصادق من غيره وهو ذو حكمة بالغة في تدبير شئون خلقه.
فهو عليم بخلقه، حكيم في فعله وتقديره لما فيه خير عباده المتقين.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. على كل مسلم أن يتثبت من صدق ما يسمع من الأخبار ولا يسارع في تصديقها.
٢. أن تسرع الإنسان في تصديق خبر مجهول العدالة والتصرف بما يقتضيه ما سمعه يؤدي غالباً إلى التحسر والندم على ما صدر منه، وقد يعرضه لعقاب الله يوم القيامة.
٣. الكاذب يوصف بأنه فاسق لخروجه عن أوامر الله ونواهيه.
٤. على المسلم أن يلتزم بأحكام كتاب الله وسنة رسوله ولا يتصرف بمقتضى هواه حتى لا يقع في المشقة.
٥. من نعم الله على عباده المؤمنين أن حبب إلى نفوسهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكراهيتهم للأمور الثلاثة وهي الكفر والفسوق والعصيان هو من تدبير الله وحكمته.

كيفية القضاء على النزاع بين المؤمنين

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْ لِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩)إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠)﴾

معاني المفردات:

طائفتان: الطائفة الجماعة من الناس.

بغت: البغي هو الظلم، والمراد تجاوزت الحد في الطغيان وجارت.

تفيء: ترجع.

إلى أمر الله : إلى حكم الله وهو الصلح.

وأصلحوا بينهما بالعدل : أي أصلحوا بينهما بإزالة أسباب القتال وآثاره، بالسوية بلا ظلم.

وأقسطوا : أي واعدلوا في حكمكم، وفي كل أعمالكم وأحوالكم وأقوالكم وفي كل شأنٍ من شؤونكم ، وهي من أقسط بفتح السين إذا عدل وأعطى قسط غيره، بخلاف قسِط بالكسر فهي بمعنى ظلم والقاسط الجائر قال تعالى : **"وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً"**

سبب النزول:

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ ركب حماراً وانطلق به إلى عبد الله بن أبي - وكان زعيم المنافقين - فقال : إليك عني فقد والله قد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من

الأنصار وهو عبد الله بن رواحة - وهو من الأوس- والله إن لحماره أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله بن أبي رجل من قومه -وكان من الخزرج - فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فنزلت هذه الآية، فرجع رسول الله ﷺ وأصلح بينهم.

الشرح:

بعد أن حذر سبحانه المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق، بين هنا ما ربما ترتب على خبره من النزاع بين فئتين، وقد يؤول الأمر إلى الاقتتال، فطلب من المؤمنين أن يزيلوا ما ينتج من كلامه وأن يصلحوا بينهما.

وقد ذكرت الآية قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع الإسلامي من الخصام والتفكك، وهي أنه إذا حصل قتال بين طائفتين من المؤمنين، فالواجب على باقي المؤمنين من غير الطائفتين المتقاتلتين أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين بإزالة أسباب الخلاف بينهما، لقطع رأس الفتنة ، من قبل أن يسيطر الشر ويستفحل سوء العاقبة.

وهذه هي الخطوة الأولى التي يجب اتخاذها من قبل المؤمنين غير المشتركين معهم في القتال، على أن يكون هذا الصلح بالعدل، وطبقاً لأحكام الله سبحانه، ومن لم يهتم بأمر المسلمين ، ويسعى للصلح بينهم وهو قادر عليه، فليس بمسلم.

قوله : "فإن بغت إحداهما على الأ خرى": أي فإن رفضت إحدى الطائفتين الخضوع لحكم الله ، وطلبت ما لا يجوز لها شرعاً، وقاتلت الفئةَ الأخرى ظالمةً لها، متعديةً عليها، وأصرت على ظلم الفئة الأخرى **"فقاتلوا التي تبغي"** أي الواجب على باقي المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية **"حتى تفيء إلى أمر الله "** أي حتى ترجع

إلى حكم الله، وهو أن تترك قتال الفئة الثانية المعتدى عليها ، فإن فاءت ورجعت عن ظلمها وتابت فأقلعت عن غيها وضلالها، وأنابت إلى الحق وطاعة الله، فالواجب الإصلاح بينهما بالعدل، كما أمر الله ﷻ "فأصلحوا بينهما بالعدل".

ولما كان رجوع الفئة الباغية رغم أنفها بسبب قتال المؤمنين لها، وهو مدعاة للانتقام، حيث كانت مصرة على بغيها، أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بأن يكون الصلح مقروناً بالعدل، أي صلحاً على السواء والانصاف بلا تحيز، لا صلح القوي مع الضعيف، والمنتصر مع المهزوم، كما يحصل اليوم.

فالواجب الإصلاح بالعد ل لتسل الضغائن، وتزول الأحقاد ويعود الصفاء ويحل محل الخصام، وبذلك يأمن الناس الرجوع إلى الحرب.

ولتحبيب الحكم بالعدل فبعد أن أمر بالإصلاح بالعدل قال : **"وأقسطوا إنَّ الله يحب المقسطين"**: أي واعدلوا في حكمكم أثناء الصلح في كل ما تأتون من أعمال أو أقوال حتى يحبك م الله، فالله سبحانه يحب العادلين في جميع أقوالهم وأعمالهم وأحكامهم، حتى مع أعدائهم ويجازيهم أحسن الجزاء. فالله سبحانه ينهى عن الظلم مع أعدائه وأعداء عباده المؤمنين بقوله: **"وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ"**[1].

ويعقب الله سبحانه على هذه الدعوة بوجوب الإصلاح بين المؤمنين ووجوب تحقيق العدل في هذا الصلح حتى ولو كان رضوخ الفئة الباغية بعد قتالها بقوله **"وأقسطوا إن الله يحب المقسطين"** فقد أكد الأمر بالعدل بقوله **"وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** " فهذا

[1] . سورة المائدة، آية ٨.

باستعمال القسط على وجه العموم، بعدما أمر به في الإصلاح ذات البين لبيان أنكم إذا حققتم العدل في هذا الصلح وغيره في أمور حياتكم يتحقق لكم محبة الله، ومن تحققت له محبة الله تحقق له رضوان الله وجنته.

وقوله : "**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** " ذلك ليستجيش الإيمان الكامل في نفوسهم واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم والتي جمعتهم بعد تفرق وألفت بينهم بعد خصام، وهي أخوة الإيمان، فقد بينت الآية العلة في وجوب الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين وهي الأخوة في العقيدة والدين والإيمان، إذ لحمة الإيمان وقرابته أقوى من لحمة النسب والقرابة.

فلذلك قال قائلهم:

"أبي الإسلام لا أبٍ لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم"

ولما كانت الأخوة في النسب داعية إلى الإسراع في لإصلاح، فالأخوة في الدين من باب أولى هي داعية للإصلاح، أي "فأصلحوا بين أخويكم " في الدين كما تصلحون بين أخويكم في النسب.

وقوله "**فاتقوا الله لعلكم ترحمون**": تذكير لهم بوجوب تقوى الله في هذا الصلح بين الطائفتين لعل الله أن يرحمهم بتحقيق العدل . وذلك بوجوب المساواة بالإصلاح بينهم، وعدم الميل إلى فريق دون فريق لقرابة أو مصلحة، لا صلح القوي الضعيف والمنتصر مع المهزوم.

فالواجب الإصلاح بالعدل لنسل الضغائن وتزول الأحقاد، ويعود الصفاء ويحل محل الخصام، وبذلك يأمن الناس الرجوع إلى الحرب وتسود المحبة والإخاء والتناصر بينهما وقد قال رسول

الله ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً"[1] وقال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم تراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"[2].

وقد بين رسول الله ﷺ حكم الفئة الباغية، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: "هل تدري يا ابن أم معبد" وهو ابن مسعود المعروف بذلك "كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة " قال : الله ورسوله أعلم، قال : "لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيئها"[3].

ولذلك نص الفقهاء عند حديثهم عن قتال البغاة على أمورٍ منها : أنه لا يجهز على جريحها، و لا يقتل أسيرها، ولا يطلب هارٍبها، ولا تؤخذ أموالها، وقالوا أن الحكمة في وجوب قتالهم، ليس هو القضاء عليهم وإنما ردهم إلى الحق وإلى جماعة المسلمين الذين هم أخوة لهم.

أقول : هذه القاعدة الشرعية في وجوب السعي في الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين، وقتال الفئة البلغية إن لم تذعن إلى الحق وأنه إذا رجعت وقبلت بحكم الله، فينبغي أيضاً تحقيق العدل بين الفئتين ولا يجوز الانتقام من الفئة الباغية إن رضخت للصلح ورجعت إلى الحق؛ فهذه القاعدة تقررها الشريعة الإسلامية قبل أربعة عشر قرناً من مناداة هيئة الأمم بتحقيقها.

وقد روى ا لإما م أحمد وأبو داوود وابن ماجه وابن حبان أن النبي ﷺ قال : " إن الناس إذا رؤوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه".

---

[1] . رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.
[2] . رواه الإمام أحمد ومسلم في صحيحه.
[3] . رواه البزاز والحاكم وصححه، انظر سبل السلام، ج٣، ص٢٥٩.

كما روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" قال: يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟، قال رسول الله ﷺ: "تمنعه عن الظلم، فذاك نصرك إياه".

والأصل في نظام الحكم في الإسلام أن يكون للمسلمين في جميع أنحاء الأرض إمام واحد، وأنه إذا بغي على الإمام وجب قتل الثاني، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام.

فلذلك يعتبر الإمام علي ﷺ هو الخليفة الرابع للمسلمين حيث بويع بالخلافة بعد مقتل عثمان ﷺ مباشرة، ومن خرج عليه كان باغيا، وقد أجمع أهل السنة ومنهم الأئمة الأربعة أن علياً ﷺ أنه هو رابع الخلفاء الراشدين وأن معاوية بن سفيان ليس من الخلفاء الراشدين.

وقد روى الإمام مسلم عن أم مؤمنين أم سلمة بأسانيد عدة مختلفة، أن رسول الله ﷺ قال لعمار: "تقتلك الفئة الباغية"[1] وقد قتله معاوية ومن معه، فهذا الحديث حجة ظاهرة في أن علياً ﷺ كان محقاً مصيباً في قتاله لمعاوية بن أبي سفيان، ومن معه بغاة وليسوا على حق في قتالهم لعلي كرم الله وجهه.

وهذا الحديث مشهور وليس من أحاديث الآحاد بل قال ابن عبد البر: تواترت الأخبار بهذا وهو من أصح الحديث، وقال ابن دحية : لا مطعن في صحته، ولو كان غير صحيح لرده معاوية، وإنما قال معاوية: قتله من جاء به وقد أجاب عمرو بن العاص على معاوية فقال: فرسول الله ﷺ قتل حمزة؟[2].

---

[1] . صحيح مسلم، ج٨، ص١٨٦، طبعة الحكومة العثمانية.
[2] . سبل السلام، ج٣، ص٢٥٨.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه أيضاً عن زر بن حبيش قال : قال علي بن أبي طالب ﷺ: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي ﷺ إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق "[1].

فالآية دليلٌ على وجوب قتال البغاة إلا أنه يتعين قبل قتالهم دعائهم إلى الر جوع عن البغي، وتكرير الدعاء، كما فعل علي ﷺ في الخوارج، فإنهم لما فارقوه أرسل إليهم عبد الله بن عباس فناظرهم، فرجع منهم أربعة آلاف وكانوا ثمانية آلاف، وبقي أربعة أبوا أن يرجعوا وأصروا على فراقه، فأرسل إليهم "كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دماً حراماً ولا تقطعوا سبيلاً ولا تظلموا أحداً"[2].

وإن كانت الفئتان باغيتين وكلٌّ يدعي لنفسه الحق فعلى المسلمين جميعاً الإصلاح فيما يحفظ على الناس دمائهم وأموالهم، ويمنع من وقوع الحرب والدمار وذلك بداعي الأخوة في الإيمان، وقد قال رسول الله ﷺ: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه"[3].

وقوله تعالى في آخر الآية: "**واتقوا الله لعلكم ترحمون** " بيان بأن تقوى الله التي أساسها صدق العقيدة والالتزام بأحكام الله وشريعته وإقامة حدوده هو العلاج العام الذي يمنع النزاع العام والاختلاف بين المسلمين ويفك الخصام، وهو سبيل الرحم ة وطريق النجاح، وقد قال رسول الله ﷺ: "تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنة رسوله".

أقول: فلو أن المسلمين متقين لله وسارعوا للإصلاح عندما يحصل قتال بين فئتين منهم كما حصل في الحرب التي وقعت بين العراق وإيران، والحرب التي وقعت بين العراق والكويت، لما قتل من المسلمين أكثر من مليوني قتيل في هاذين القتالين، ولكن بعدهم عن

---

[1]. انظر مختصر مسلم ، باب لا يحب علياً ولا يبغضه إلا منافق، ج١، ص١٦، رقم الحديث ٣٦.

[2]. سبل السلام، ج٣، ص٢٥٩-٢٦٠.

[3].

تقوى الله وموالاة بعضهم لأعداء الله من الصليبيين الحاقدين على المسلمين في هذين القتالين، وشراء ذمم بعض العلماء الذين أعلنوا ولائهم وتأييدهم لبعض الطائفتين، أدى إلى ما نحن فيه الآن.
وقد حاول فضيلة المرحوم الشيخ محمد عبده هاشم مفتي المملكة الأردنية الهاشمية في ذلك الوقت السعي في الإصلاح بين العراق وإيران، فسافرت بمعيته إلى مصر بدعوى من شيخ الأزهر الأسبق محمد جاد الحق، واجتمعنا ببعض علماء مصر في ذلك الوقت منهم فضيلة الشيخ محمد سعدي فرهود وف ضيلة الشيخ متولي الشعراوي ومفتي الجمهورية واتفقنا معهم ومع فضيلة شيخ الأزهر على الوفد الذي سيسافر لأجل الإصلاح بعد اتفاق على أعضاءه من العالم الإسلامي، إلا أن بعض الدول في العالم الإسلامي حالت بين سفر الوفد مما اضطر فضيلة الشيخ محمد عبده هاشم رحمه الله بإص دار فتوى بمفرده وإدانة العراق في الاعتداء، وأرسله إلى حكام المسلمين وملوكهم في البلاد العربية والإسلامية، وكانت نتيجة فتواه أن طلب منه الاستقالة من مركز الإفتاء، والله المستعان.

ما يستفاد من هاتين الآيتين:

١. إذا حصل قتال بين طائفتين من المسلمين فالواجب على المسلمين أن يصلحوا بينهما بالعدل.
٢. إذا تعدت إحداهما وظلمت ورفضت الصلح بالعدل بينها وبين الطائفة الأخرى فعلى جميع المسلمين قتالها حتى ترجع عن غيها وضلالها.
٣. إن إخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب وهي مدعاة للتراحم والتحابب في الله وعدم حصول قتال بينها.

٤. ينبغي أن يكون الصلح قائماً على العدل والمساواة والإنصاف بلا تحيز لإحدى الطائفتين.
٥. إن تقوى الله هي العلاج الذي يمنع النزاع ويفك الخصام ، وهي سبيل الرحمة وطريق النجاة للأمة الإسلامية ، وذلك بالتزام بكتاب الله والسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

النهي عن السخرية والتنابذ بالألقاب وسوء الظن

قال الله تعالى:
"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ (١١) **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضً ا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** (١٢)**"**

معاني المفردات:

لا يسخر : لا يهزأ، فالسخرية هو النظر إلى المسخور منه بعين النقص والاحتقار.

قوم : هم الرجال خاصة لأنهم القوامو ن بجلائل الأمور كالقتال والإنفاق على الأسرة.

ولا تلمزوا أنفسكم: لا يعب بعضكم بعضاً، واللمز هو الطعن في الغير خفية بالعين او اللسان.

لا تتنابذوا بالألقاب: لا تتاداعوا بالألقاب المستكرهة.

بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان: بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً.

اجتنبوا: تباعدوا.

كثيراً من الظن: هو ظن السوء بأهل الخير والصلاح، وهو خلاف اليقين.

إثم: ذنب.

لا تجسسوا: لا تتبعوا عورات المسلمين.
ولا يغتب: الغيبة ذكر أخاك بما يكره.

سبب النزول:
روي أنها نزلت في ثابت بن قيس ﷺ وكان به وقر، وكانوا يوسعون به في مجلس رسول الله ﷺ فأتى يوماً وهو يقول تفسحوا لي، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال لرجلٍ : تفسح، فلم يفعل، فقال من هذا، فقال الرجل: أنا فلان، فقال: بل أنت ابن فلانة - يريد أماً كان يعير بها- في الجاهلية - وخجل الرجل فنزلت، فقال ثابت ﷺ: لا أفخر على أحدٍ في الحسب أبداً".
وروي عن أبي جبيرة ابن الضحاك قال : إن قوله تبارك وتعالى "ولاتنابزوا بالألقاب" فينا نزلت في بني سلمة، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا له اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا إحدٌ منهم بإسم من تلك الأسماء، قالوا يارسول الله : إنه يغضب من هذا الاسم، فنزلت"[1]. وروي أنها نزلت في قول بعض نساء النبي ﷺ بأم المؤمنين صفية بنت حيي : يا يهودية بنت يهوديين ، وروي غير ذلك.
وكلها تدل على وقائع استهزاء حصلت رجالٌ برجال ونساءٌ بنساء، وعيب بعضهم بعضاً ، وتداعيهم بألقابٍ يكرهها أصحابها وغيبةٍ ونحوها، واستصغاراً لمن لم يكن لهم حظ من شرف النسب ولو كان له حظٌ في التقوى.

[1] . رواه الإمام أحمد وأبو داوود.

الشرح:

والصلة بين هاتين الآيتين وما قبلها؛ هو أنه لما أمر في الآيات السابقة التي تحض على وجوب السعي إلى الإصلاح ذات البين ونهيٍ عن التفرق، وبينت طرق حسم النزاع الذي ينبغي أن يحصل بين المؤمنين، نهت هاتين الآ يتين عن ستة أمور وهي : السخرية واللمز وعن التنابز بالألقاب واجتناب كثيراً من سوء الظن، وعن التجسس، وعن الغيبة.

وقد بدأت كل آية من هاتين الآيتين بمناداة المؤمنين بالصلة التي تربطهم بالله وهو قوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا " لاستجاشة الإيمان الكامل في نفوسهم ويسرعوا إلى الاستجابة.

وقد اشتملت الآيتين عن النهي أولاً عن سخرية الرجال برجالٍ آخرين وبسخرية نساءٍ بنساء، والنهي يقتضي قبح المنهي عنه وحرمته.

وقد عللت ذلك بأنه قد يكون الذين يسخرون منهم في ميزان الله خيراً منهم.

ففي هذه الآية تبين للناس أن بعض القيم الظاهرة التي يراها الناس ويقومون بها غيرهم كالمال ، والجاه ، والسلطان ، أنها هي ليست القيم الحقيقية في ميزان الله ﷻ، وهناك قيم أخرى غيرها، وقد تكون خفية عليهم وقد تكون ظاهرة، فقد يسخر الغني بالفقير والقوي بالضعيف، والسوي بذي عاهة في بدنه، واللبق باللسان من الساذج الخام غير اللبق في محادثته، وقد تسخر المرأة الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز ، والطويلة من القصيرة، وقد يكون الذي يسخر منه أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن يسخر منه، فهو يكون باحتقاره واستصغاره له قد استهزأ بمن هو خير منه عند الله، لأن ميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين التي يقيسون بها.

وفي الحديث الشريف **"رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره"**[1].

ولا تستقيم وحدة أمة يحقر بعضها بعضاً وإنما الأمة هي التي يتحابب أعضائها ويتعاونون على البر والتقوى كأنهم البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

فقد قال رسول الله ﷺ: **"لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تنابزوا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"**[2].

وقال رسول الله ﷺ : **" إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم ولكن ينظر قلوبكم وأعمالكم"**.

وقد ورد النهي عن السخرية مطلقة فهي تشمل السخرية بالقول والسخرية بالفعل والإشارة وغير ذلك.

وقوله تعالى: **"لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكن خيراً منهن "** فأتى في التنكير بقوله تعالى :"قوم " و"نساء " لتقييد العموم والشمول، وأن كل جماعة منهية عن ذلك ، وهو أبلغ وأدفع ، وأتى بالجمع في الموضعين من قبل أن الأغلب في السخرية أن تكون في مجامع الناس، ولا يفهم منه جواز سخرية رجل برجل أو امرأة، أو سخرية امرأة بامرأة أو برجل.

---

[1]

[2] . رواه الإمام مسلم، مختصر صحيح مسلم، ج٢، ص٢٣٣، رقم الحديث ١٧٧٥، والنجش هو أن يزيد في السلعة وهو لا يريد شراءها بل ليوقع غيره فيها.

وكذلك في النهي عن سخرية النساء بعضهن ببعض مع أن لفظ القوم عادة يشملهن قوة في النهي كما أن السخرية عند النساء ببعضهن أكثر وجوده من سخرية الرجال بالرجال، فلذلك كرر ذلك وخصصهن لتأكيد حرمة ذلك.

ثانياً : نهت عن اللمز فقالت : "**ولا تلمزوا أنفسكم** " أي لا يعيب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية أو إشارة أو العين أو نحوهما.

وفي قوله: "أنفسكم" تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه فلا ينبغي أن يعيب أخاه المؤمن، لأنه كأنه يعيب نفسه.

وقد قال النبي ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كجسد واحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[1]، وقال عليه السلام: "يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ، ويدع الجذع في عينه"[2].

وقد قيل: من سعادة المرء أن يشغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره، وقال الشاعر:

لا تكشفن مساوئ الناس ما ستروا فيهتك الله ستر عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهن إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

وقد نهى الله سبحانه عن اللمز في سورة الهمزة فقال تعالى : " **وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ** "[3] أي هلاك وشقاء لكل من كان كثير الهمز ، أي العيب في غيره، وكثير اللمز: وهو الطعن في الغير خفية بالإشارة باللسان أو العين مثلاً ، والهمز بالفعل واللمز بالقول . كما قال

---

[1] .

[2] .

[3] . سورة الهمزة، آية ١.

تعالى : **"هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ "**[1] أي يحتقر الناس و يهمزهم طاغياً عليهم ويمشي بينهم بالنميمة، وهي المشي بالمقال.
ثالثاً: نهت عن التنابز بالألقاب.
ومعنى لا تنابزوا بالألقاب، أي لا يدع بعضكم بعضاً باللقب يسوءه أو يكرهه، وذلك أن التداعي بالألقاب يؤدي إلى الضغائن، وتؤدي الضغائن إلى الكره والهجران والقطيعة، فضرر التنابز بالألقاب على المجتمع يشبه ضرر السخرية واللمز وقد نهى عنهما في آية واحدة.
وقد روي عن النبي ﷺ: **"من حق المؤمن على أخي ه المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه"**، ولهذا كانت التكنية من السنة واللقب الحسن، وقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وعثمان بذو النورين . وكان رسول الله ﷺ يغير بعض الأسماء القبيحة . فعن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده ﷺ أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: **"ما اسمك؟"** قال : "حزن" قال: **"أنت سهل "** قال : "لا أغير اسماً سمانيه أبي، قال سعيد بن المسيب: فما زالت الحزونة فينا بعده"[2].
وقد قيل لكل امرئٍ من اسمه نصيب يعمل في نطاق اللاشعور عمله،ومن الألقاب المنهي عنها أن يقول المسلم لأخيه ا لمسلم: يا فاسق، يا منافق، أو تقول لمن أسلم يا يهودي أو يا نصراني.
ومن التنابز بالألقاب أيضاً أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب وراجع الحق، فنهى الله تعالى أن يعير بما سلف من عمله أو عمل أبيه أو جده، كان يقال لعكرمة ﷺ يا ابن أبي جهل.

---

[1] . سورة القلم، آية ١١.
[2] . رواه البخاري وأحمد وأبو داوود.

"بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان" أي بئس أن يصبح أحدكم فاسقاً بعد أن أصبح مؤمناً، فقد اعتبر القرآن التنابز بالألقاب فسقاً، وفي هذا إيحاء في استقباح الجمع بين الأمرين كما تقول بئس الصورة بعد الشيخوخة أي معها.

قوله: **"ومن لم يتب فأُولئِك هم الظالمون"** أي من لم يتب عن هذه الأمور الثلاثة، وهي السخرية واللمز والتنابز بالألقاب لاخوانهم المؤمنين فهم ظالمون لإخوانهم وظالمون لأمتهم وظالمون لأنفسهم أيضاً، لأنهم يعرضونها للعقاب الشديد، يوم القيامة.

كذلك اشتملت الآية الثانية عن النهي عن أمور ثلاثة أيضاً وهي سوء الظن، والتجسس، والغيبة.

الأمر الأول: سوء الظن.

قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم " أي يا أيها الذين آمنوا ابتعدوا عن كثير معن الظن بالمؤمنين، بأن تظنوا بهم السوء ، لأن ذلك يؤدي إلى ارتكاب ما حرم الله، وقد روي عن سيدنا عمر ﷺ قال : "ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلاّ خيراً وأنت تجد لها مخرجاً"[1].

كما روي عن سعيد بن المسيب قال: "كتب إليّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من أمرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه"[2].

وأن بعض الظن جائز شرعاً وذلك ممن لا تعرف عدالته وذلك لأخذ الحيطة والحذر منه.

---

[1] . تفسير ابن كثير، ج٣، ص٢١٢.
[2] . تفسير المراغي، ص ١٣٧.

أما الظن الذي فهو إثم هو الظن بالمؤمنين المتقين والتكلم به، وهذا هو المراد بقول الرسول ﷺ: **"وإياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"**[1] ومعنى الحديث هو أن التحدث بما يق ع في النفس من سوء الظن بأحد المسلمين دون التحقق والتثبت بما وقع في النفس، هو من الكذب إذا تحدثت به، لأنه إتهام من غير دليل، أما إذا لم تتحدث به وأخذت الحيطة والحذر فلا بأس، وكذلك إذا أخذت بالتثبت من صحته، كما فعل رسول الله ﷺ بالنسبة لخبر الوليد بن عقبة الذي ولاه بجمع صدقة بني المصطلق، فزعم بأنهم ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة فذلك جائز شرعاً.

وينبغي على المسلم أن يظن بأخيه المسلم الذي عرف بالتقوى والصلاح خيراً، ولا يظن به السوء إلاّ بدليل.

أما الذي ظن منه الفسق والسوء والخيانة وبدا خبثه وكذبه ، وكذلك من يتقرب إلى الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ، ويبرر أعمالهم المخالفة لشرع الله، فلا إثم بسوء الظن بهم، وتحذير الناس منهم ومن فتاويهم الضالة المضلة المخالفة لشرع الله.

وقد قال رسول الله ﷺ: **"صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس العلماء والأمراء"**[2].

وكذلك لا يحرم سوء الظن بمن يجاهر بفسقه ، فيشرب الخمر أويتعامل بالربا، أو بالقمار، أو يوالي أعداء الله.

وكذلك لا يحرم سوء الظن ممن شوهد يدخل الحانات التي تبيع الخمر، وفيها المغنيات الكاسيات العاريات ، أو يصاحب المغنيين والمغنيات الفواجر الذين ينشرون ال رذيلة في المجتمع ، بواسطة وسائل الإعلام ، في الجرائد والمجلات والمذياع والتلفاز، وبما

---

[1] . رواه البخاري ومسلم.
[2] . رواه أبو نعيم في الحلية.

يذيعون من الأغاني الماجنة، ومن يُرَوجون لهم ويدعمونهم مادياً وإعلامياً.
أقول إن ما يعرضن في المجلات والجرائد والتلفاز من صور النساء الكاسيات العاريات ومن يرقصن أمام المغني ين والمغنيات، لأخطر على المسلمين من جيوش الأعداء، لأن في ذلك هدم لأخلاق الأمة في عقر دارها الذي هو البناء الداخلي للأمة، وهو أهم من البناء الخارجي، وقد روى الإمام مسلم في باب النساء الكاسيات العاريات، أن رسول الله ﷺ قال: **"صنفان من أهل النار ولم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وأن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا"**[1].
قال الله تعالى ناهياً مصاحبة هؤلاء: **"وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ"**[2]. أي لا تميلوا إلى أدنى ميل إلى الذين يتجاوزون حدود الله بارتكاب ما حرم الله، فتجالسوهم فتستحقوا بسبب هذا الميل عذاب الله ، ولا تجدوا أحداً يدفعه عنكم، ثم تكون عاقبتكم الخسران يوم القيامة.
الأمر الثاني: النهي عن التجسس.
فقد نهت الآية بقوله تعالى : **"ولا تجسسوا "** والمراد بالتجسس البحث عن عيوب المسلمين وتتبعها لإظهار تلك العيوب، والتجسس عادة يتبع سوء الظن، فإذا أساء شخص ظنه بإنسان أخذ يبحث عن عوراته، ويكشف سوءاته، فلذلك نهت الآية عن التجسس بعد النهي عن سوء الظن.

---

[1] . مختصر صحيح مسلم للمنذري، ج٢، ص١٢٨، رقم الحديث ١٣٨٨، قوله كاسيات عاريات: أي كاسيات في الحقيقة عاريات في المعنى لأنهن يلبسهن لباساً رقاقاً يصفن البشرة، ومعنى مميلات: أي للقلوب بغنجهن ورقصهن.
[2] سورة هود، أية ١١٣.

فقوله لا تجسسوا ولا يتَّبع بعضكم عورات بعض ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك إظهار عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، فإن التجسس أغلب أحواله ذميمة غالباً، تزرع الضغينة ويفرق الكلمة، فلا يجوز التجسس على الناس في بيوتهم أو مصانعهم أو متاجرهم أو مزارعهم، قال أبو قلابة: حُدث عمر بن الخطاب أنَّ أبا محمد الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلاَّ رجل، فقال أبو محمد: إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه.

وأما التجسس على العدو وليأمن شرهم فذلك جائز شرعاً.

وفي البخاري في قصة الهجرة عن عائشة رضي الله عنها قالت (لبث رسول الله ﷺ هو وأبو بكر في الغار ، فكمنا فيه ثلاث ليالٍ عندهما، وكان عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يَكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما يخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر مِنحةً من غنم فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء...)[1].

وكذلك لما خرج رسول الله ﷺ ببدر بعث من يتجسس له عن قافلة أبي سفيان بن حرب وغيره، وفي رواية ابن اسحاق خرج عليه السلام هو ورجل من أصحابه (أبو بكر) حتى وقفا على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فأخبره، فلما فرغ من خبره قال لهما : ممن أنتما؟ ،قال رسول الله ﷺ: من ماء، ثم رجع رسول الله إلى أصحابه، فبعث علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص وغيرهم إلى بدر يلتمسون له الخبر...)

[1] . صحيح البخاري، ج٥، ص٧٥-٧٦.

هذه الحوادث كلها تدل على جواز التجسس عن العدو لمعرفة أخباره وأخذ الحذر منه.

ثالثا: الغيبة. قال الله تعالى: **"ولا يغتب بعضكم بعضاً"**، أي لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيبته، والمراد بالذكر؛ الذكر صريحاً أو إشارةً أو نحو ذلك مما يؤدي إلى النطق، لما في ذلك من أذى المغتاب، وإيغار الصدور وتفريق شمل الجماعات.

والمراد بما يكرهه في دينه أو دنياه أو خَلقه أو خُلقه أو ماله أو ولده أو زوجه أو سلبية أو غير ذلك مما يتعلق به.

قال الحسن البصري: الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله ، الغيبة، والإفك، والبهتان.

فأما الغيبة: فهي أن تقول في أخيك ما هو منه.

وأما الإفك: فأن تقول فيه ما بلغك عنه.

وأما البهتان: فأن تقول فيه ما ليس فيه.

وعن شعبة قال : قال لي معاوية بن قرة : لو مر بك رجل أقطع (مقطوع اليد) فقلت هذا أقطع كان غيبة، قال شعبة فكرته لأب ي اسحاق فقال صدق.

وعن أبي هريرة قال : (قال رسول الله : ما الغيبة؟ ، قال : ذكرك أخاك بما يكره. قال: أرأيت إن كان فيه ما أقول؟، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) رواه الترمذي.

وقال وفي الباب عن أبي برزة وابن عمر وابن عمرو.

وبعد أن نهى الله عن الغيبة ضرب سبحانه مثلاً للتنفير والتحذير منها فقال: **"أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد ميتاً "** فإذا كنتم لا تحبون ذلك بل تكرهونه لأن النفس تعافُ ، فكذلك فاكرهوه أن

تغتابوه في حياته . أي فإذا كنتم تكرهون ذلك طبعاً فاكرهوه ذلك شرعاً لما فيه من شديد العقوبة.
ولا خلاف بين العلماء في أن الغيبة من الكبائر، وأن على من اغتاب أحداً التوبة إلى الله، أو الاستغفار لمن اغتابه، أو الاستحلال منه.
وقد شبهت الغيبة بأكل اللحم لما فيها من تمزيق الأعراض المشابهة لأكل اللحم وتمزيقه.
قال المقنع الكندي:
فلو أكلوا لحمي لوفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً
وقد زادت الآية فجعلت اللحم لحم أخيه وهو ميت تصويراً له بصورة بشعة، تستقذرها النفوس جميعاً.
قيل لعمرو بن شبيب: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك، قال : إياه فارحموا.
وقد ثبت في الصحيح من غير وجه أن النبي ﷺ قال حين خطب في حجة الوداع : **"إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا"**.
"واتقوا الله" أي فاكرهوا الغيبة، واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه وراقبوه واخشوه حتى تنجوا من عقابه.
وختم الآية في الدعوة إلى التوبة فقال: **"إن الله تواب رحيم"** أي أن يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب رحيم به أن يعذبه بعد توبته.
وتجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة والتي من شروطها الإقلاع عنها، وأن يندم على ما فرط منه ، وأن يعزم عزماً مؤكداً على ألا يعود إلى مثل ما فرط منه.

قال فضيلة الأستاذ الشيخ المراغي في تفسيره:
ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعاً لا يتوصل إليه إلا بها وينحصر ذلك في ستة أمور:
١. التظلم: فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه.
٢. الاستعانة على تغيير المنكر، بذكره لمن يظن قدرته على إزالته.
٣. الاستفتاء، فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي : ظلمني فلان بكذا فهل يجوز له ذلك.
٤. تحذير المسلمين من الشر؛ كجُرح الشهود والرواة والمتصدين للإفتاء مع عدم أهليتهم لذلك، وكأن يشير وإن لم يستشر على مريد التزوج أو مخالطة غيره في أمر ديني أو دنيوي، ويقتصر على ما يكفي، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين ذكر ذلك.
٥. غيبة من يجاهروا بالفسق كالمدمنين على شرب الخمور وارتياد محال الفجور، ويتباهوا بما يفعلونه.
٦. التعريف بلقب أو نحوه، كالأعور والأعمى ونحو ذلك إذا لم تكن المعرفة بغيره[١].
وقال الحسن البصري : لا غيبة إلا لثلاثة : فاسق مجاهر بالفسق، وذي بدعة، وإمام جائر.

ما يستفاد من هذه الآيات:
١. نهى الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات عن سخرية بعضهم ببعض فهم في وجوب اجتناب المحرمات سواء.
٢. لا يجوز شرعاً أن يعيب بعض المؤمنين بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية.

[١] . تفسير المراغي، تفسير سورة الحجرات.

٣. أن الذي يعيب أخاه المسلم كأنه يعيب نفسه ، لأن المؤمنين كالجسد الواحد.
٤. لا يجوز للمسلم أن يلقب أخاه بلقب يسوءه ويكرهه.
٥. إن الذي يلقب أخاه بلقب يكرهه يصبح فاسقاً بعد أن كان مؤمناً ويكون ظالماً.
٦. يجب على المسلم أن يجتنب كثيراً من الظنون وذلك لبمن عرف بالاستقامة والعدالة.
٧. لا يجوز للمسلم أن يبحث عن عورات المسلمين ومعايبهم بالتجسس عليهم وكشف عما ستروه.
٨. لا يجوز للمسلم أن يذكر أخاه المسلم بما يكره وخاصة حالة غيبته.
٩. إن الذي يذكر أخاه حال غيبته مما يكره كأنه يأكل من جثته وهو ميت، وهذا دليل على بشاعة الغيبة وحرمها.
١٠. إن هاتين الآيتين نهت عن أمور ستة؛ وهي السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، و التجسس ، والغيبة وتعتبر كل واحدة منها من الكبائر، حيث اعتبر القرآن ارتكاب كل واحدة منها فسق وظلم، وتوعد من لم يتب عن كل واحدة منها بالعذاب الأليم يوم القيامة، وذلك لأن ارتكاب أي واحدة منها يؤدي إلى هدم بعض أركان البناء ال داخلي للأمة؛فلذلك سميت هذه السورة بسورة الأخلاق، لما اشتملت عليه من هذه الأمور وغيرها، والبناء الداخلي أهم من البناء الظاهري وفي ذلك يقول النبي ﷺ: **"إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"**[١].

[١] . رواه الإمام مسلم وغيره.

إن أكرم الناس عند الله أتقاها

قال الله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣)﴾

معاني المفردات:
ذكر وأنثى: آدم وحواء.
شعوباً: جمع شعب، وهو الجمع العظيم من الناس المنتسبون إلى أصل واحد عرفوا به . ويتشعب منه القبائل، ومن القبائل العشائر أو العمائر ثم البطون.... إلخ.

سبب النزول:
أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم فتح مكة رقي بلال على ظهر الكعبة فأذن، فقال بعض ال ناس: أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة؟ فقال بعضهم : إن يسخط الله هذا يغيره، فأنزل الله
" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى**... " الآية.

الشرح:
يخاطب الله ﷻ جميع البشر؛، نحن بقدرتنا وإرادتنا خلقناكم من أصل واحد ، حيث أوجدنا كم من ذكر واحد وهو آدم عليه السلام، وأم واحدة وهي حواء، وإن اختلفتم أجناساً وألواناً، فلا تتفاخروا فيما بينكم بالآباء والأجداد والألوان، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم

لآدم وآدم من تراب وقد جعلناكم قبائل متعددة، لأجل التعارف والتآلف والتعاون، لا لتميز شعب عن شعب أو قبيلة على أخرى. فانقسام الناس إلى شعوب وقبائل للتعارف لا للتناحر والتخالف فهو ليعرف الإنسان نسبه فيقال فلان بن فلان، من قبيلة كذا من الشعب الفلاني.

والمعنى أن الحكمة التي من أجلها جعلكم منقسمين إلى شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ، ولا ينتسب إلى غير آبائه وأجداده.

قال اسحق الموصلي:

الناس في عالم التمثيل أكفاء أبوهم آدم وأمهم حواء

فإن يكن لهم في أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

وروى الطبري قال: خطب رسول الله بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: **"يا أيها الناس إلا إن ربكم واحد، وإن أ باكم واحد، إلا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟** قالوا: نعم، قال: **فليبلغ الشاهد الغائب"**.

وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ : **"إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إ لى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلبٌ صالح تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم"**.

وقد بين الله سبحانه ميزانه في تفضيل شخص على آخر فقال : **"إن أكرمكم عند الله أتقاكم "**، أي أن الأكرم عند الله من خلقه بني الإنسان، والأرفع منزلة لديه ﷻ في الآخرة والدنيا هو التقي، فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى، فمن رام نيل الدرجات العلا عند الله فعليه بتقوى الله.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما : إن النبي ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة وهو على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: **"يا أيها الناس، إن الله أذهب عنكم عَيْبة الجاهلية، وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله ، ورجل فاجر شقي هين على الله، إن الله تعالى يقول : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَ عَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"، ثم قال: أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم"**.

والتقوى هي؛ الإيمان بعناصر العقيدة الصادقة ، والعمل الصالح، والأخلاق الكريمة، وكل من لم تجتمع به هذه الصفات التي نبه الله إليها في آية البر من سورة البق رة ليس من المتقين وليس من الصادقين مع الله، قال الله تعالى: **" لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ، وَالضَّرَّاءِ, وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ, الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ"**[1].

واقسم الله في سورة العصر على كل من لم يتصف بصدق العقيدة والأعمال الصالحة والأخلاق الكريمة بأنه من الخاسرين، قال الله تعالى : **" وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ۞"**

[1] . سورة البقرة، أية ١٧٧.

ولقد أغرق الله في الطوفان ابن نبي الله نوح عليه السلام، ولم يستجب لمناجاة أبيه لإنقاذه، واعتبر طلب نوح عليه السلام من ربه في نجاة ابنه أنه عمل غير صالح.

وقد قال الشاعر:

واتقى الناس أتقاهم شعوراً وأرقاهم بأخلاق الكتاب
ومن يخش الله هدى وحبا فذاك الماس من بين التراب

ولقد عاش في ظل هذه الدعوة الإسلامية التي رفعت مبدأ التقوى ووضعت مبدأ الأجناس والشعوب والقبائل رسول الله ﷺ سيد العرب والعجم ، وأبو بكر الصديق العربي العدناني مع سلمان الفلوسي وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي وغيرهم من العرب والعجم والبيض والسود، إخواناً متحابين متعاونين في بلاد كانت تقودها العصبية القبلية، والعنهجية الجاهلية، وختم الآية بقوله : "**إن الله عليم خبير** " أي أن الله عليم بكم ، مطلع على ظواهركم وبواطنكم يعلم التقي والشقي غير الملتزم بأحكامه.

وقانون هيئة الأمم المتحدة ينادي بما نادى به الإسلام من المساواة بعد أربعة عشر قرناً ، إلا أن التفرقة العنصرية مازالت مهيمنة ومسيطرة في أمريكا وأوروبا ، مع دعواهم المساواة والعدالة والديمقراطية.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. إن الناس كلهم يرجعون إلى أب واحد وأم واحدة.
٢. وجوب تحقيق المساواة بين الناس فلا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى.
٣. أفضل الناس في ميزان الله اتقاهم له ، وهو عليم مطلع على ظواهر الأمور وما خفي منها عن عباده.

بيان حقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام

قال الله تعالى:
﴿قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾

معاني المفردات:
الأعراب: سكان البادية من العرب، والواحد أعرابي.
آمنا: صدقنا وأذعنا بما تدعو إليه.
أسلمنا: انقدنا ظاهر أو صرنا مسلمين.
ولما يدخل الإيمان في قلوبكم: أي لم يدخل الإيمان في قلوبكم بعد.
لا يلتكم: لا ينقصكم.
لم يرتابوا: أي لم يداخلهم أو يطرأ عليهم شك في المستقبل.
أتعلمون الله: أتخبرون الله.
يمنون عليك : المن تعداد النعم اعتداداً بها وإظهاراً الفضل لصاحبها.

سبب النزول:
روى أنها نزلت في بني أسد من خزيمة ، كانوا يقيمون في جوار المدينة، فأصابتهم س نة مجدبة ، فقدموا إلى النبي ﷺ وأظهروا الإسلام وادعوا الإيمان، وقالوا للنبي ﷺ جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فنزلت هذه الآية.

الشرح:
يقول الله سبحانه منكراً على بعض الأعراب الذين ادعوا لأنفسهم الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد، فقال: **"قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا: أَسْلَمْنَا"** أي قولوا: أسلمنا وانقدنا لكم وصرنا مسلمين.
قد استفيد من الآية أن الإيمان والإسلام حقيقتان متباينتان لغة وشرعاً وهذا هو الأصل في الأسماء المختلفة ، وقد يتوسع فيهما الشرع فيطلق إحداهما على الآخر على سبيل المجاز.
ويدل على أن الإيمان والإسلام مختلفان وأن الإيمان أخص من الإسلام أيضاً ، حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث سأل جبريل رسول الله فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **"أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا"** قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال أخبرني عن الإيمان، قال : **"أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره "**، قال : صدقت،... ثم قال رسول الله ﷺ: **"أتدري من السائل ؟"** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **"فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"**[1].

[1] . رواه الإمام مسلم وهو الحديث الثاني في الأربعين النووية.

وقوله تعالى: " **وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** " دلت هذه الآية إن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية، ليسوا بمنافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، ولو كانوا منافقين لعنوا وفضحوا، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً،أي أنكم لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان[1] وذلك إن الإيمان له أركانه ، فأول أركان الإيمان : هو الإيمان بالله أي التصديق بأنه سبحانه موجود موصوف بصفات الجلال والكمال، منزه عن صفات النقص، وأنه واحد حق صمد فرد ، خالق جميع المخلوقات ، متصرف فيما يشاء ويفعل في ملكه ما يريد، فهو واحد في ذاته، وواحد في صفاته.

الإيمان بالملائكة : هو الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة موجودين وهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

الإيمان بالرسل: هو الاعتقاد الصادق بمن أرسلهم الله لهداية الخلق وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى ، أيدهم الله بالمعجزات الدالة على صدقهم، وأنهم بلغوا عن الله رسالاته ، وبينوا للمكلفين ما أمرهم الله به.

وقد اختلف العلماء الفرق بين النبي والرسول، والذي يظهر لي أن النبي أخص من الرسول فالنبي كل من نزل عليه الوحي أما الرسول فهو من نزل عليه الوحي، وأنزل عليه كتاب من الله وأمر بتبليغه - والله أعلم -.

والإيمان باليوم الآخر: هو الاعتقاد الجازم والتصديق بيوم القيامة، وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت ، والنشر والحساب والصراط والجنة والنار وأنها دار ثوابه وجزائه للمحسنين والمسيئين.

---

[1] . أنظر مختصر تفسير ابن كثير ج٣، ص٣٦٨.

والإيمان بالقدر: قال ابن دقيق العيد عند شرحه لحديث جبريل :
(هو التصديق بما تقدمك ذكره - أي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله - وحاصلة ما دل عليه قوله تعالى : **"وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ"**[1]، **"إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ "**[2] ونحو ذلك، ومن ذلك قوله ﷺ في حديث ابن عباس: **"واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"**.
ومذهب السلف وأئمة الخلف أن من صدق بهذه الأمور تصديقاً جازماً لا ريب فيه ولا تردد كان مؤمناً حقاً سواء كان ذلك عن براهين قاطعة أو عن اعتقادات جازمة)[3].
فالعلامة ابن دقيق العيد رحمه الله يرى أن القدر هو أن تؤمن بما قدره الله من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، ويرى أن حديث ابن عباس الذي رواه عن رسول الله ﷺ هو توضيح لمعنى القدر والذي نصه قول الرسول ﷺ لابن عباس : **"يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف "**. رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وفي رواية غير الترمذي : **" احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم**

---

[1] . سورة الصافات، آية ٩٦.
[2] . سورة القمر، آية ٤٩.
[3] . شرح الأربعين النووية، لابن دقيق العيد، ص٥١.

أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا"[1].

وقال ابن دقيق العيد و قوله: ("**رفعت الأقلام وجفت الصحف**" هذا تأكيد أيضاً لما تقدم أي لا يكون خلاف مما ذكرت لك بنسخ ولا تبديل)[2].

أي أنه إن حفظت الله يحفظك، احفظ الله تجده اتجاهك، أي أن تقدير الله يكون نتيجة عملك، وليس معناها كل شيء كتب باللوح المحفوظ كما ذهب بعض العلماء، وقال في شرح (احفظ الله تجده تجاهك) أي اعمل له بالطاعة ولا يراك في مخالفته فإنك تجده تجاهك في الشدائد[3].

قوله تعالى: " **وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**" أي أن تطيعوا الله ورسوله بالإخلاص الكامل والإيمان الصادق لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، والله عظيم المغفرة واسع الرحمة.

قوله تعالى : " **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ**" فبعد أن نفى عنهم الإيمان ووصفهم بأنهم مسلمون أي منقادون ظاهراً لأوامر الله بين لهم حقيقة المؤمنين ببيان صفاتهم، فذكر بأن المؤمنين الصادقين في دعوى الإيمان هم الذين صدقوا وأذعنوا لله ورسوله فأقروا لله سبحانه بالوحدانية ولرسوله بالرسالة عن يقين راسخ وإيمان كامل، ثم لم يشكوا أو لا تزلزل إيمانهم بل ثبتوا على التصديق و اليقين المحض، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، فالجهاد في سبيل الله

---

[1] . رواه الترمذي وغيره، أنظر الأربعين النووية الحديث التاسع عشر.
[2] . شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد، ص ١٤٢.
[3] . المرجع السابق، ص١٤١.

بالأموال والأنفس محك الإيمان ودليله، وعنوانه وأساسه، فليس الإيمان دعوى تردد باللسان، ولا خداع بالكلام وإنما هو جهاد بالنفس والمال لإعلاء كلمة الله وفي سبيل نصر الإسلام.
لقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله، فقال: **"من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"**.
ومعنى كون كلمة الله هي العليا؛ أن يكون الناس أخيار في أن يدينوا بدين الله وأن يدعوا إلى سبيل الله لا يمنعهم من ذلك مانع.
وقال: (ومن اتصف بهذه الصفات هم المؤمنون حقاً، والصادقون بدعواهم الإيمان وهم المتقون).
روى أنه لما نزلت هذه الآية التي تقتضي تكذيبهم وتبين صفات المؤمنين الصادقين، جاءوا وحلفوا إنهم مؤمنون صادقون فنزل قوله تعالى يرد عليهم: **" قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "** أي قل لهم يا محمد: أتخبرون الله بما في ضمائركم وما تنطوي عليه جوانحكم بدعوى أنكم صادقون في إيمانكم بقولكم آمنا (والله يعلم ما في السماوات والأرض)، فلا يخفى عليه مثقال ذرة فيها . وفي هذا تكذيب وتسفيه لقولهم وتجهيل وتوبيخ لهم، فهم يجهلون بأنهم يخاطبون رسول الله ﷺ الذي يستقي علمه من علام الغيوب العليم بذات الصدور ، فكيف تنطلي أكاذيبهم عليه "والله بكل شيء عليم"، فالله يعلم كل ما في السماوات وما في الأ رض وهو بكل شيء عليم، ومن علمه أنه يعلم أنهم كاذبون بدعواهم الإيمان.
قوله تعالى: **" يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا"** أي يمنون عليك يا محمد أن أسلموا - بعد أن نفى عنهم الإيمان كما زعموا وسمى ما أظهروه إسلاماً - وأرشدهم إلى حقيقة الإيمان ببيان صدق العقيدة،

قل لهم يا محمد : لا تمنوا علي إسلامكم ودعواكم متابعتكم لي وإيمانكم بما جئت به، وتظهرون بذلك تفضلكم علي حيث قالوا : جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، قل لهم **"لا تمنوا علي إسلامكم** " أي لا تعدوا إسلامكم الذي سميتموه إيماناً منه علي يستوجبون عليها الحمد والثناء، " **بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ** " أي بل لله المنة العظمى عليكم إذ أمدكم بتوفيقه وهدايته للإيمان إن كنتم صادقين في إيمانكم. وفي هذا إيحاء إلى أنهم كاذبون في ادعائهم الإيمان. أقول: فلله المن والفضل على عباده المؤمنين الصادقين إذ هداهم من الضلالة إلى الهدى، وأن ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً.

ما يستفاد من هذه الآيات:

١. بيان أن الإسلام والإيمان حقيقتان متباينتان لغة وشرعاً وقد يطلق على الآخر من باب المجاز.
٢. من صفات المؤمنين أن يؤمنوا بالله ورسوله إلى درجة اليقين ولا يدخل في نفسهم الشك والتردد في ذلك.
٣. الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس محك الإيمان ودليله وعنوانه وأساسه.
٤. لله الفضل والمن على عباده أن هداهم إلى الإيمان الحقيقي

خلاصة ما اشتملت عليه السورة:
مما سبق ظهر لنا أن هذه السورة اشتملت على كثير من الآداب والأخلاق الإسلامية، وبينت الفرق بين الإيمان والإسلام، فهي منهج حياة المسلم.
خلاصة ما اشتملت عليه:
١. ألا يقضي المؤمنين في أمر قبل الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله.
٢. تعظيم الرسول ﷺ واحترامه حياً وميتاً، ولا يرفعوا أصو اتهم عند مقامه.
٣. وجوب التثبت من حقيقة الأخبار، وأن لا تسارع في تصديق ما تسمعه من أخبار وتبني عليها الأحكام.
٤. إن بغت طائفة مؤمنة على أخرى فيجيب الإسراع إلى الإصلاح بينهما بالعدل.
٥. إذا رفضت الفئة الباغية الرضوخ إلى الحق فيجب على المؤمنين قتالها حتى ترجع إلى أمر الله.
٦. إذا رجعت الفئة الباغية إلى الحق فيجب تحقيق العدل والمساواة بين الفئتين، وليس صلح المنتصر على المغلوب والقوي على الضعيف.
٧. نهت الآية عن ستة أمور تفسد وحدة الأمة، وتفرق كلمتها وهي السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، وتجنب كثيراً من الظن، والتجسس، والغيبة، ويعتبر ذلك من الكبائر.
٨. قررت أن الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم سواسية، مخلوقين من ذكر وأنثى لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.
٩. بيان أن الإسلام والإيمان حقيقتان متباينتان وقد يطلق أحدهما على الآخر من بابا المجاز.

١٠. من صفات المؤمنين التصديق بالله ورسوله ولا يداخلهم شك و لا ريب في كتاب الله والسنة الصحيحة الثابتة عن رسوله.
١١. الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس في سبيل الله وهو محك الإيمان الصادق ودليله وعنوانه وأساسه.
١٢. لله الفضل والمنة على خلقه أن هداهم إلى حقيقة الإيمان وأساسه وأركانه.